

## حديث الثورة

شعر: أميرة الرويقي

أجئ بلادي من خلف

ظماً

أخالني أستسقي

شراب الحياة

بلادي كل زادي

وكل الهوى الذي

ARCHIVE  
<http://Archive.Sakhrit.com>

غيره لن أحب

شراب الحياة هنا

أرتويه

برغم

غربان وبوم

أخلق عالياً حتى

عنان الحياة

لا أبالي بكيد

وحلقة قد أسسها

خيال رديئ

يحطّ صباحا

على جدار نزق

تبّا لقمع



ARCHIVE

أرادوا قتلي... لكنني

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

أعود لأثبت جلّنا را

ويا سمينا

وكلّ الضياء

لن تقمعوا صوفي

لن تجتثوا من رحم وطني

لن تقدروا على افتركاك الحياة

## العالم المقلوب

شعر: شكري الغزواني

ما بال أخلاق العباد تبدّلت

والمين أضحي للغواة بديلا

والنذل أمسى بين قومه سيّدا

حاز الثناء وأحرز التحجيل

والغانيات كتفنن عن شرفاقل

<http://Archivebeta.Sakhrir.com>

لقي العري بعصرنا التحليل

أشرافنا صوب الموانخير جرّوا

وابن الزنا قد بات فينا أصيلا

آيامنا فيها الوضع تسيد

والحرّ قد هان وأضحى ذليلا

والمال قد أمسى ديانة عصرنا

والزاهد قد قيل عنه بخيلا

ما عاد عندنا للتكافل موضع

ترك الصواب والحقّ فينا اغتيل

ما عاد عندنا للتراحم قيمة

ما عاد عندنا للضعيف كفيلا

الضنك عمّ والخصاصة قد طغت

والضيم بات على الصدور ثقيلا

والمرء قد أفلت بثموع شبابه

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrir.com>

أضحى طريقه بالكروب طويلا

لا يفقه معنى الحياة وكنهها

لا يملك في ذي الحياة دليلا

ما عاد عندنا للكتاب مكانة

فالدين أمسى بيننا تمثيلا

صار التزلف حكمة وريادة

والذلّ أمسى للبيب بديلا

من حاول ردّ الغواية مجرم

لقي الهوان وواجه التنكيل

لو جاهر بالحق أصبح كافرا  
صلب على الملء ونحر قتيلا  
قد بيع في سوق النخاسة عرضنا  
ودعائنا قد أدمنوا التدجيل  
أضحى المراءون بقومنا سادة  
حازوا الوقار ولاقوا التحليل  
في عصرنا الوطواط أصبح هاديا  
يجلي الظلام ويحمل قديلا  
والبغل أصبح للأفام معلما  
فقه الكتاب ولقن الإنجيل  
والقرود أضحى في الخطابة مرجعا  
تلقاه في سوق الكلام قويلا  
حقا على الدنيا السلام فسلموا  
ما عاد من أحلامنا إلا قليلا  
ما عاد للشمس فجر بعد مغربها  
فالصبح أضحى للظلام خليلا.

## الأهيم

شعر: مهدي عليمي

أرى فيما يرى الأهيم

الهائم

دولا توزّع كاهدايا

أرى الكراسي عليها نوق

وبجائهم

وأرى السيايا يظفرون الأيام المتعبة

وبصطفلين بالحقايا

حكايا الفاتحين الأولين

في الأزمة الغابرة

أرى المنايا

يقطفن الورد

طفلا لم يذبت سنة بعد

لم يشمع بحليب أمه

ولم يتنهجى بعد

الأبجدية

وأرى فيما يرى الهائم

صباحا وليدا

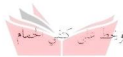
تأتي به النسائم

## لعيون الوطن والحرية

شعر : مختار المومني

في الشتاء المطرُز بانتفاضات الشعوب

يتغنى على شفتي الكلام



ARCHIVE هي الحرية

<http://Archivebeta.Sakhrir.com>

مبدعة الفرح الفوضوي

وها راية الوطن عالية

والغيث يرافقها

وصوت الأرض يعلو فوق بارقة الجبين

يعزف الأناشيد على صدور الشعبين

ايه .. يا صوتنا المقموع في الزمن الحزين

ويا حلمنا القدود فوق المستحيل

ها قد نطق البوح

وانهد سور الخوف اللعين

فالشعب يكتب ملحمة الكرامة

والأرض تفرش سحابة، وتصلي للشهيد

والعصافير تمسك بال لحظة الهاربة

يرتاح الوطن فوق جيبني

بحالسي عند ناصية الفعل

نشر بـ نخب المزام الطغاة .. القساة .. الزناة اللصوص

<http://Archivebeta.Sakhrir.com>

يباحثني كيف نمضي صعودا إلى آخر الأرض

أصارحه .. وحدك أنت اليقين

تمسك تكتب فوق الحجاب مواقيت للبذل .. للبذر ..

وتودع في الأرض سر الحياة

وها أنذا أتعلمق في خيمك ظلك

أتسرب بين كفيك مشتعلا كمروحة غادرتها الرياح



## اعتذار

شعر : صالح الطرابلسي

نقرّ لديك أيا وطني

ونعتذر:

لقد خنقوا عباراتنا زمنا:

القصيدّة فيه،

ARCHIVE

عن التصريح قد عجزت

<http://Archivebeta.Sakhr.it.com>

وبالتلميح لم يفهم الغرض!

هو ذا التاريخ قد كشف

عن معرّقم،

إنّا بصحوة التاريخ نعتير!

نقرّ لديك أيا وطني

ونعتذر:

لقد ذرّوا الرّماذ على الأعين الدّعشاء،

وصاغوا للورى

من الوهم وعودا وردية،

فعضنا بالمنى دهر،

نعلّ • النفس

ونتظر! ...



وَنَعْتَدِر:

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

لقد غيّبوا الرؤيا في

قصيدتنا ،

وأخفوا حقيقتهم

خلف وجوه ...

قد جمّلتها المساحيق،

في قاعة التّحميل

انكشفت، فبان

قبحهم ، ما مثله قبح!

نقرّ لديك أيا وطني

ونعتذر:

لقد فُهِبوا شعبنا هذا الأبيّ،

لقد فُهِبوا عزم سواعده...

فُهِبوا...



ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrir.com>

فُهِبوك ، أيا وطني،

فُهِبوا التاريخ

في دقّة الكتب ! ..

فُهِبوا حضارتنا

منحوتة على الحجر ! ..

سخطا لهم ! ..

قلوبهم عميت

قلوبهم حجر

طوبى لك ، أيا شعبنا

طوبى لك بثورتك !

تحرّنا ...

تحرّنا ...

والخوف قد رحل ،



ARCHIVE

فاستوصل القهر ،

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

سننتصر لك ، أيا وطني ،

إنّا سننتصر ! ..

مخضبة بدم الشهيد ،

هذه الوردة الفيحاء

التي قد أهديتنا إياها ! ..

أريجها سوف يعتقنا !

بعزتك أيا وطني ،

العالم سوف ينهر ،

سنعيد للزيتون حضرتة ،

ونكون الساعد المفتول ،

يفجّر الأرض بحيرات ...

ونكون لك الدرع الحصين

يحمي حماك ...



ARCHIVE

أرضك الفيحاء

<http://Archivebeta.Sakhrir.com>

أيا وطني على سواعدنا

سنرفعها ،

نتغذى بجمر طينتها ،

ونمضي برايات ثورتك

إلى شامخات الدّرى ..

نردّها أنشودة

والقيود التي كم أجمت قصيدتنا

إنها اليوم تبلى فتتكسر !

قلوبنا أيا وطني

تتهاطل ،

مطرا من الحبّ

يسقيك بالخصب !



ARCHIVE

سنسكبه في

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

شريان أعلامنا

ونكتبك قصيدة أخرى

موقعة ...

على الصفحة الجذباء تنشر !

نقرّ لديك أيا وطني

ونعتذر !

## برقيّتان إلى جلالتهما..

شعر: نجاح زقـيّه

أنا .. والحرية..

قصة حبّ لا تنتهي..

في كلّ يوم تلهث عكس اتجاه رياح الطغاة:

متى يهدأ عصف المطام؟

متى تلتقط الحياة أنفاس النقاء؟

متى تستريح شعوب الشقاء؟

\*\*\*\*\*

أنا .. والحرية..

ربّما سيهرم الوقت..

وقد أشيخ وأنا أنتظرها..

ستكسوني تجاعيد الزمن المرّ..

ملوّنة بمساحيق الصبر..

لكنني سأبقى فتيةً ما دُمْتُ أنتظرها.

## انتهى... رجع الصدى

شعر: صابر العبيدي

الحب يا سيدي

وردة يسقيها الندى

وان غاب :

يقتلها الردى

يا أنت ... يا أنا

يا أميني ... في الهوى

ما أنت سوى ... أنا

يا رفيقي في الصبي

يا روح الندى

وعبق الشذى

لماذا رحلت ...

عبر هذا المدى

لماذا يا سيدي



دعمت ... فراق الصدى ؟

واسست بيننا

هذا ... العدى

وشيدت جدار النوى

والقلب ... قلبي أنا

بعد أن ... اهتدى

احترق من اللظى ،

وانتهى منث الرضى

يا أنت ... يا أنا

ها انتهى مني ...

رجع الصدى

وكل شيء انتهى

انتهى

انتهى

## أليس الصبح بقريب

(3)

شعر: صلاح الدين حراث

فوانيس المدينة



ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

والصبح

\*\*\*\*\*

وأظل بارز الوجه

ومثلي لا يتلثم..

ويبقى الفجر صامدا..

بترشف الصباح

وسط هذيان الخرافه

وسطوة الجرافه

وعريده الكراسي المقلوبه

وعبيده الأناشيد المؤجره..

وافهيار عرش كسرى

وايوان سلاطين



وهرب الطواغيت

مع الجوارى

من الدور.. والقصور..

والخوانيت..

\*\*\*\*\*

ويبقى الفجر

يترشف قهوة تونسيه

يترشف صباحا معتقا

على مهل

مبشرا بصباح الحريه

يزغرد لشهداء الفضيله..

مروا من هنا..

ومن هناك..

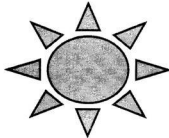
ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

عبر مسارات الروح

كالدرر

يدعو لهم بالسرمد..



## بداية العصيان

شعر: زهور العربي

على ربوة الزمان  
هنا ... فوق قصيدي ... شاحنة

أحضن الأيام

أصارع الظلام

أدخل التاريخ

أهدد الطغيان

ARCHIVE

لننام بكل عنفوان

<http://Archive.takhrir.com>

أفتح السجون

أشرع الأبواب

أحرر الحروف من أغلالها

أرسلها ... حجارة

ترجم .. من خافها

هنا ... أوقف الزمان

ليشهد جنازة الخنوع

و الركوع

العصيان و يعلن ... بداية

## القيم في التراث العربي

### بقلم: الهادي العثماني

وغير خاف عن المنطق والعقل دور القيم في إرساء مجتمع قويم. إذ لا يمكن لأية حضارة أن تدوم ما تخلت عن أخلاقها وقيمتها.

القيم إذن هي مجموعة من العلاقات والممارسات التي تحكم مجتمعا ما بما يتفق عليه عامة الناس بأنه الصواب والمطلوب المرضي عنه. ولن يكون ذلك كذلك إلا متى كان في صالح الإنسان أخلاقيا يعين الاعتبار نواحيه الاجتماعية منسجما مع عاداته وتقاليده محترما لخصوصياته محمدا لأقواله وأفعاله ساعيا به نحو الخير والفضيلة.

ولأن القيم تتغير أو تتطور، فسأتعرض للحديث عنها من خلال محطات تاريخية ثلاث :

**1- القيم العربية قديما في العصر الجاهلي والتي يحكمها المنطق القبلي العشائري من خلال شيم البداوة في مجتمع صحراوي له خصوصياته، وتلك القيم آنذاك كثيرة أبرزها الشهامة وحفظ الكرامة والجدود والكرم وإغاثة الملهوف ونصرة المظلوم وإجارة المستجير وحماية الجار وصيانة العرض، وقرى**

إن الحديث في موضوع القيم واسع متشعب المشارب لأن مفهوم القيم في حد ذاته يتباين (معنى يختلف) من عصر إلى آخر ومن بلد إلى بلد.

ولعله يكون أقرب إلى الجدوى انطلاقا من المفهوم اللغوي القاموسي للعبارة : فكلمة قيم مدلول جمع مفردا قيمة. نقول قيم الشيء أي حدد قيمته وقوم المعوج أي عدله وسواه وجعله مستقيما، ومن هنا تعني لفظة القيم ما به تستقيم الحياة ويصلح الحال من الأخلاق القويمة. ولعل المفهوم السائد لمعنى القيم يوازي لدينا من بعض وجوهه مصطلح كلمة الأخلاق في مفهومها الإيجابي بمعنى الأخلاق الحسنة التي ينشدها الإنسان وهو مضمون لغوي اجتماعي بالأساس.

قال الشاعر :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت

فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

عنيت فلم أكسل ولم أتبلد

جاء في الشعر الجاهلي عن الوفاء قول زهير بن أبي سلمى:

ومن يوف لا يذمم ومن يفض قلبه

إلى مطمئن الير لا يتجمجم

ومن يكن ذا فضل فيخل بفضلته

على قومه يستغنى عنه ويذمم

إن الشعر الجاهلي قد أسس كثيرا من القيم وتفاصيلها، لذلك أراي ألوذ به مرجعا، على غريب لفظه وبعد متناوله وعموض مناحته، وذلك لثرائه وتسجيله لمضامين القيم الاجتماعية، غير أنني اكتفي منه بعض الاستشهادات.

قال الشنفرى في عزة النفس وإباء الضيم:

وفي الأرض منأى للكرم عن الأذى

وفيها لمن خاف القلى متعزل

وباختصار فإن القيم العربية الأصيلة كانت قديما بمثابة قانون للقبيلة ودستور ينظم حياتهم بما به تهيأت لهم تلك الحياة التي عاشوها على الوجه الذي أرادوه.

**2- القيم في الإسلام:** جاء الإسلام بعد الجاهلية،

فأقر من القيم السابقة ما أقر وعدّل ما عدّل وجب ما رأى الغاءه ضرورة لتعديل حياة المسلم على نهج

الضعيف والذود عن حياض القبيلة والمحافظة على الأمانة ونيد الخيانة والوفاء بالعهد... وهي في مجملها قيم إنسانية خيرة تقيم علاقات سامية بين البشر، ولكن قيما توازبها قد تجانب الصواب من منظورنا اليوم، كالأخذ بالثأر وواد البنات وممارسة الغزو وشن الغارات... وغيرها مما لا تصلح به شؤون الأمة.

وباختصار فإن مفهوم القيم يتقاطع (بتشارك) بمفهوم الفنوة عندهم والتي تلخص في الفروسية والشجاعة وإجادة الرماية وهو المعنى الذي كرّسه أبو الطيب المتنبي في قوله:

الخيل والليل والبيداء تعرفني

والسيف والرمح والقرطاس والقلم

وهذا المفهوم سبقه إليه الشاعر الجاهلي: ابن العريان العنماني في قوله :

أنا ابن الفلا والطنن والضرب والسرى

وجرد المذاكي والقنا والقواضب

فالتميز في المفهوم العربي الجاهلي هو البطل النموذجي الذي يحتل في تركيبته الأخلاقية بمحمل القيم المتعارف عليها آنذاك.

يقول طرفة بن العبد :

إذا القوم قالوا من فتي خلت أنني

قال عبد الرحمان ابن خلدون : "الإنسان مدي بطبعه" ولكن ما يلاحظ اليوم مع الأسف الشديد اندثار الكثير من القيم الفضلى لأسباب كثيرة لعل أبرزها التكاليف على المادة على حساب ماهو روحي وطغيان الثقافات الغربية على واقعنا العربي المترهل.

وغير خاف مسؤولية السّلط الحاكمة في كثير من البلدان العربية لما تكرسه من محسوبية ورشوة وتغيب للدين وما ممارسه من تسلّط وظلم وقمع وإرهاب... واقع مر ومؤسف ولكنه مفروض، غير أن الأمل، كل الأمل في إشراق نور هذه الثورات الشعبية المباركة التي اخضبت في هذه السنة (2011) المبشرة بخير كثير من أجل تحرر الإنسان وانعتاقه...

وختاماً فإنّ القيم الأخلاقية تبقى على الدوام ضرورة انسانية لتحقيق الفضيلة والخير والأخوة والإنسانية والتفاهم بين الناس واحترامهم وحبهم لبعضهم بعضاً. فخير الناس من كان أنفعهم للناس.

قوم، وجاءت قيم الإسلام السمحة منظمه لحياة الفرد والجماعة بما به يستقيم دين الإنسان ودنياه ويتحقق له الخير في حياته وأخراه. ولأن الإسلام تشريع سماوي مرّه عن كلّ خطأ فقد جاءت قيمه مسيطرة لكل مكان وزمان.

قال الرسول صلى الله عليه وسلّم : "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق". أمّا القرآن الكريم فلم يترك موضوعاً مما يحتاج إليه الإنسان إلا ونوّره بآية أو آيات فأضاف ونقح وغيّر وانقص بما لا يحتاج معه المجتمع إلى دستور ولا قانون مما تحسن به حياته وعلاقاته بغيره وكان ما جاء به كافياً لبناء شخصية المسلم على أحسن تقوم.

### 3- في العصر الحديث : قيمة القيم ونظرة الإنسان

إليها

إنّ الإنسان في حاجة دائمة إلى القيم طالما هو يعيش ضمن مجتمع ما يترتب عليه بناء علاقات وجب اتصافها بخصائص معينة حسب عاداته وتقاليده ورؤاه، تضمن السير الطبيعي للحياة، وقدنما





## المراهق بين رغبة التفرد وضوابط المجموعة

بقلم: حاتم السديري

للأزمة دور تنموي. فلا نغو بدون أزمة ولا نضج بدون صراع.

فكل أزمة أو صراع يخوضه المراهق داخل ذاته أو مع مجتمعه يفرز بالضرورة نضجا نفسيا يقابله غطا علائقيا جديدا مع الآخر. ومن هنا تتجلى لنا طبيعة هذا الصراع الذي يسود حياة المراهق في هذه الفترة. فهو صراع بين الذات والذات وبين الذات والآخر. وهو المحور الرئيسي الذي تنبني عليه هذه الفترة عموما.

وهذا ما سنحاول توضيحه بشكل أدق حتى نستطيع فهم طبيعة حياة المراهق. وبالتالي نساعد على تخطي أزماته على تنمية ذاته.

فنبداً بالسؤال عن سبب هذا الصراع بين الذات والمجتمع: لماذا هذا الصراع؟

لم تعد المراهقة اليوم ذلك المفهوم المتعالي. المحرد. او تلك الفترة العصبية التي تمر في حياة الفرد. فهي لم تعد "سن العواصف" كما يقول البعض. وإنما أصبحت سن التطور والنضج النفسي والاجتماعي للشباب هذه النظرة الجديدة والتي سعت جل الدراسات والمباحث النفسية والاجتماعية على ترسيخها وإثباتها. وذلك بالتعمق والتغلغل داخل هذا المفهوم لفك رموزه وإزاحة اللبس عنه. وبالتالي أصبحت لدينا نظرة جديدة للمراهقة مغايرة تماما لما كانت عليه في السابق تنبني بالأساس على أن المراهقة هي مرحلة تحول وبالتالي نمو أو نضج. هذا النمو يقوم على قاعدة الأزمة والصراع في شتى مجالات الحياة النفسية والاجتماعية للمراهق فيصبح

برغباته الخاصة وأشواقه الخاصة ومطالبه الخاصة وضروراته الخاصة. والجانب الآخر أنه من أعماق فرديته هذه يهفو إلى الآخرين.

يهفو إلى الجنس الآخر

ويهفو إلى الذرية ...

ويهفو إلى الأصدقاء ...

ويهفو إلى الزملاء...

بل ويهفو إلى وجود أعداء أو منافسين

يصارعهم ويتغلب عليهم...

وفي ختام محاولتنا هذه كشف طبيعة

حياة المراهق في بعض جوانبها الاجتماعية.

نقول أنه في كل نفس سوية ميل للشعور

بالفردية المتميزة... بالكيان الذاتي وميل

مقابل للإندماج في الجماعة والحياة معها

وفي داخلها.

ومن هذين الميادين معا تتكون الحياة ...

حياة المراهق

فهو يولد مرة ليحي ومرة ليعيش .

ولنفهم ذلك يجب أن نغوص أكثر في

طبيعة طرفي الصراع. فالذات الإنسانية من

جهة، هي موطن الرغبات والغرائز فهي

تنوق إلى التحرر من كل القيود ومن كل

الضوابط إذن فهي تميل إلى التفرد بطبيعتها.

أما الطرف الثاني وهو المجتمع فهو موطن

الضوابط الأخلاقية والسياسية. فطبيعة

الطرفين هي طبيعة متضاربة بطبيعتها فالذات

لا تستطيع أن تمارس جل رغباتها أمام

الضوابط والقوانين التي يفرضها المجتمع

بحرية فينشأ بذلك نوع من الصراع إلا أن

هذا الصراع لا يؤدي بالضرورة إلى قطيعة

بين الذات والمجتمع لأن الذات في حاجة إلى

المجتمع... في حاجة إلى الآخر لتواصل معه

فهما خيطان متلازمان متضاربان. ومن هنا

بعد أن كشفنا طبيعة هذا الصراع تنكشف

لنا ملامح حياة المراهق داخل مجتمعه فهو

من جانب يرفضه ليحس بتفرد و يشعر بأنه

يختلف عن الآخرين. ويحس بحدود كيانه.

ويحس "بالأنا" التي يشتمل عليها. ويحس

## تراث الأمم والحضارات من خلال كتاب العبر لابن خلدون

بقلم : طارق العمراوي

قاصوها بأشباهها ولا سروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار فضلوا عن الحق" 1.

وهذا النقل المعمول به، المكرس لتوارث المعلومات والأخبار مثل ولا زال أحد عوائق البحث في تاريخ الأمم ومعالها وما خلفوه من تراث ضاع جزء منه كما يذهب إلى ذلك ابن خلدون، تفاعلنا مع الباقي منه، دخلنا معه حلبة التجادل، أثر فينا، تأثرنا به، رفضناه، ساهمنا مع فواعل الطبيعة في اندثاره، قدمنا محاولات لفهمه مازالت متواصلة، ساهمنا مع فواعل الطبيعة في اندثاره، قدمنا محاولات لفهمه مازالت متواصلة، ابتدأت قبل العلامة ابن خلدون وبعده، حاول من موقعه وهو يؤسس لمنظومات العمران البشري ملامسة تراث الأمم والحضارات الذي مثل حلقة مهمة في الفهم والتحليل المؤسس لمشروعه الدارس للعمران البشري للعمارة القديعة

يعدّ كتاب "العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر" للمؤرخ عبد الرحمن ابن خلدون إنجازاً في أصناف المعارف والعلوم ومقدمات تحكم مقدمته المؤسسة لعلم جديد لقراءة نوعية للعمران البشري في حراكه جموده أو اندثاره قدم مقاربات، حلل بالأمثلة الدامغة التي يشقها المنطق وإعمال العقل، أهمية أن يكتب التاريخ الانساني بعيداً عن الذاتية، الأوهام، غرافات القصص والأساطير، كان ناقداً لكل أصناف المؤرخين والإخباريين في إيرادهم الخوارق والعجائب وتقاسيرهم التي لا تخضع للتحكيم المبني على هذا المنطق الذي رافق بيانه ونصوص منته والفصول التي أتى على ذكرها فهو القاتل "وكثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل من المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادها فيهم على مجرد النقل غثاً أو سميماً ولم يعرضوها على أصولها ولا

أجسامنا في أطرافها وأقطارها فليس بين البشر في ذلك كبير بون كما نجد الهياكل الآثار ولقد ولع القصاص بذلك وتعالوا فيه وسطروا عن عاد وحمود والعمالقة في ذلك أخبارا عريقة في الكذب"3.

لينقد عن طريق حكاية يوردها في أحد فصوله عندما يتحدث "فيما يجب مراعاته في اوضاع المدن وما يحدث إذا غفل عن المراعاة "البكري وطريقة النقل وعبوها كما أورد سلفا المسعودي إذ يقول :

"ومن الحكاية من مذاهب العامة ومباحثهم الركيكة والبكري لم يكن من نباهة العلم واستنارة البصيرة بحيث يدفع مثل هذا أو يتبين خرفه فنقله كما سمعه 4 لتلتقي وجهة نظره وسدادها مع ياقوت الحموي في موسوعته "معجم البلدان" حين قال "وأما منارة الاسكندرية فقد قدمنا اكتارهم في وصفها ومبالغتهم في عظمها وتحويلهم في أمرها وكل ذلك كذب لا يستحي حاكمه ولا يراقب الله راويه ولد شاهدنا في جماعة من العلماء وكل عاد منا متعجا من نخوص الرواة 5" لنكتشف مع ابن خلدون وياقوت الحموي جمهرة مؤرخين ودارسين للتمدن الانساني حازمين، حذرين في تنقية المعلومة والأخبار من شوائب عدة جعت

لحضارات غابرة استطاعت أن تقهر الزمن والآفات، عاشت لتشهد الناس والمؤرخين على طاقات إنسانية خارقة شددت اهتمام الخاصة والعوام كطبقة الثقت وللأسف في الفهم مع مؤرخين وإخباريين كبار فاعتقد كلهم في خوارق وراء انجاز هذه المعالم الشاهقة فقدموا تخاليلهم وتفاسيرهم القريبة من فهم العوام رفضها لمنطق الحجة والبرهان فهو القاتل في شأن الكتاب أولا "وإنما مثار غلظهم في هذا أنهم استعظموا آثارا الأمم ولم يفهموا حال الدول في الاجتماع والتعاون وما يصل بذلك وبالهندام من الآثار العظيمة فصرّفوه إلى قوة الأجسام وشدقها يعظم هياكلها وليس الأمر كذلك وقد زعم المسعودي ونقله عن الفلاسفة مزعما لا مستندا له إلا التحكم وهو أن الطبيعة التي هي جلبة للأجسام لما برأ الله الخلق كانت في تمام الكرة ونهاية القوة والكمال وكانت الأعمار أطول والأجسام أقوى"2.

أما العامة فإنه يفند تصورهم العقيم وهو يحلل تفاصيل مشروعه قائلا :

"وأعلم أن تلك الأفعال للأقدمين كانت بالهندام واجتماع الفعلة وكثرة الأيدي عليها فبذلك شيدت تلك الهياكل والمصانع ولا توهم ما توهمه العامة أن ذلك لعظم أجسام الأقدميين عن

القيروان وبناء الموحدين في رباط الفتح" 6 أو جامع بني أمية بقرطبة والفترة التي على واديها. لي طرح بعد ذلك اشكالية مهمة وهي اجتماع الفعلة، كثرة الأيدي، الحيل في نقل الأحرام، الصناعة الهندسية المتقدمة وخاصة الأزمنة المتعاقبة

لإنجاز معلم عظيم أين أورد لنا في فصله الذي عنوانه "في أن الهياكل العظيمة جدا لا تستقل بيناتها الدولة الواحدة" فيقول ابن خلدون محلا فكرته "والسبب في ذلك ما ذكرناه من حاجة البناء إلى التعاون ومضاعفة القدر البشرية وقد تكون المباني في عظمها أكثر من القدر مفردة أو مضاعفة بالهندام كما قلنا فيحتاج إلى معاودة قدر أخرى مثلها في أزمة متعاقبة إلى أن تتم فيبتدئ الأول منهم بالبناء ويعقبه الثاني والثالث وكل منهم قد استكمل شأنه في حشر الفعلة وجمع الأيدي حتى يتم القصد من ذلك ويكمل ويكون ماثلا للعيان يظنه من يراه من الآخرين أنه بناء دولة واحدة وانظر إلى ذلك ما نقله المؤرخون في بناء سد مأرب وأن الذي بناه سبا بن يشجب وساق إليه سبعين واديا وعاقه الموت عن إتمامه فأثمه ملوك حمير من بعده" 7.

أما المباني الغير مكتملة فهي حسب ابن خلدون انقلاب الملوك على سابقيهم ولو كانوا أولي قربي ورفضهم إتمام معالم بدأ آباؤهم في إنجازها ليدخلنا

كل منهما يدرج في نصوصه وهو يقيم معاصريه وغيرهم كلمات جارحة يبتدأ مثلا ابن خلدون بالوهم فالمباحث الركيكة، المضحكات والكذب الذي يشترك فيه مع ياقوت الحموي ومع أعلام كالمسعودي والبكري.

فالمشروع الذي يوطر فيه رؤيته لهذه الآثار هو نسبة قوتها في الأصل أي الدولة المنحزة لهذه المعالم والمواقع والتي ذكرنا بها ابن خلدون في عدة مناسبات وفي فصول متتالية ثابتة من ثوابت كتابته وهي تقدم معجب بما خلفته لنا الانسانية أولا رابطا ذلك بدوام العمران والذي ينحز عوارق حديثة كما أنجز الأسلاف ومازال الإنسان في عمرانته يتحفن بالقصور والقناطر وغيرها فتراه يتحدث عن ايوان كسرى، الأهرامات الفرعونية بمصر، ديار ثمود، حنايا جلب الماء إلى قرطاجنة فاسحا المجال أمام الإبداع الانساني بعد هذه العجائب ليذكر معالم عاصرها العامة والخاصة، آثار يقول عنها "فقد نجد آثارا كثيرة من آثار الذين تعرف مقادير أجسامهم من الأمم وهي في مثال ذلك العظم أو اعظم كايوان كسرى ومباني العبيدين من الشيعة بأفريقية والصنهاجين وأثرهم باد إلى اليوم في صومعة قلعة بني حماد وكذلك بناء الأغالبة في جامع

فسحوا المجال أمام معرفة التراث العلمي، الأدبي، الصوفي والفلسفي لليونانيين وغيرهم أمثال حنين بن اسحاق، ثابت بن قرة وفي جميع العلوم الهندسة، الطبيعيات، الطب وغيره كما لم يفته الحديث عن ذكر حركة الترجمة النوعية أيام المأمون، هذه الترجمة عموماً ناقش منها العلماء العرب، أثرت فيهم، تأثروا بها ليخلص هذه المرحلة معبراً عن موقفه تجاه العلماء والمفكرين الذين تقاطعوا مع ما ترجم قائلًا "وكتب أرسطو فيه موجودة بين أيدي الناس ترجمت مع ما ترجمت من علوم الفلسفة أيام المأمون وألف الناس على جنوها وأوعب من ألف في ذلك ابن سينا في كتاب "الشفا" جمع فيه العلوم السبعة للفلاسفة كما قدمنا ثم لخصه في كتاب "النحا" وفي كتاب الإشارات وكأنه يخالف أرسطو في كثير من مسائلها ويقول برأيه فيها وأما ابن رشد فليخص كتب أرسطو وشرحها متبعاً له غير خالف وألف الناس في ذلك كثيراً "8.

حاول نص ابن خلدون وصاحبه تقديم هذه الأمم والحضارات كحلقة تربطنا بماضينا، بالإبداع الإنساني في العمارة والعلوم، هذه الأمم وإن اختلفنا معها في التصورات والمعتقد تبقى مهمة في عملية التواصل والجدل الحضاري، احتجنا التراث العلمي لتطور حضارة البدوة التي

بعد ذلك في اشكالية حضارية خطيرة ترجع إلى آلاف السنين وهي طمس آثار القدامى فهذا رمسيس السادس اختلس اسم رمسيس الرابع ونسب الانجاز لنفسه عند معبد الأقصر أو بمعبد آمون عندما جعل ابساميطوس الأول اسمه على الأعمدة مكان اسم صاحبها ليورد مثالين أولهما عزم الرشيد على هدم ايوان كسرى والاطاحة بجزء هام منه ثانيهما المأمون في هدم أحد الأهرامات بمصر والشرح الباقي إلى اليوم وعجزهما عن الهدم أين يرجع ذلك إلى القدر المفرطة التي أسسته رغم اعتباره أن الهدم أسير من البناء.

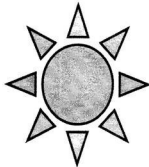
أما التراث المكتوب والذي حاز اهتمام خاص عند ابن خلدون والذي ابتدأه بالحروف والكتابة مذكراً بكتابة المسند لأهل حمير وأن الكتابة تابعة للعرمان فبعد أن كان الخط العربي كأصحابه البدو غير متقدم وبعد أن تمكنوا من أصول التحضر تغنوا في خطهم، كانت لهم العلوم وسوق الكتب والمكتبات ومخازنها ليؤطر كل الظواهر الحضارية التابعة للأمم الغابرة أو الحضارات التي عاصرها ضمن مقولات مشروعه ليصل بعد تحليل إلى العلوم التي قسمها أقسام لم تختلف عن التقسيم المرجعي للعرب وقتها كعلوم نقلية وأخرى عقلية أين ذكر بالترجمين الذين

والفراغة بمعالم العبيدين والموحدين وغيرهم قارا بذلك حركة التاريخ البنية على أساس تعاقب الحضارات تعاقبا دوريا يخضع للحتمية التاريخية المار بالنشأة فالإزدهار والانحطاط بمنظور واقعي خلفت تصورات ورؤى استفاد منها الغرب فترجوا كبه التي كانت منطلقا غدت نظريات علماء الاجتماع والمؤرخين.

#### الإحالات :

- 1- ابن خلدون، كتاب العرشمشورات مؤسسة الأعلمي لمطبعات بيروت ص 9
- 2- نفس المصدر [ص 178]
- 3- نفس المصدر [ص 177]
- 4- نفس المصدر [ص 348]
- 5- الحوي ياقوت معجم البلدان - الرومي الفيغادي المجلد الأول دار صادر - بيروت [ص 187]
- 6- كتاب العمر [ص 345]
- 7- نفس المصدر [ص 346]
- 8- نفس المصدر [ص 492]

انطلق من رحمها العرب ويؤسسون لحضارة مازالت تؤثر في العالم اليوم، حضارة استقدمت البنائين والمهرة في كل فنون العمارة لنجد العاج الأندلس والقصور العباسية، هذه العمارة هي انعكاس منطقي لمقدمات التطور العمراني والمعري للحضارة العربية، لقوة الدولة وقتها، كما المعالم القديمة للحضارات الغابرة التي ساهمت معالمها الظاهرة والمنقضة في الوقوف على هذه الأطلال لفهم تاريخ الحضارات وفتراتها منذ النشأة حتى الانهيار فالرسالة الضمنية والمصرحة التي تقود العلامة ابن خلدون في نصه مادام العمران موجود بمقوماته المادية يواصل الإنسان إبداعاته في التراث المعماري أو العلمي المكتوب، يكفي أن نؤمن بقرائنا فسننجز مثل عجائب الدنيا الماضية في حجم تطورنا ولحظتنا التاريخية فقد قارن كما أسلفنا معالم كسرى والفراغة بمعالم العبيدين والموحدين وغيرهم قارا أسلفنا معالم كسرى



## بروموسبور لـ "حسن بن عثمان" رواية الصراحة والإحراج

بقلم: صابر الحباشة

يبدو اشتغال الخطاب في مختلف مستوياته، كما أبانت عن ذلك لسانيات التلفظ منذ بنفيسيت أساما على اللغة صيغا وتراكيب، بني وجملا، تحمل دلالات لغوية وعرفية ومقامية توجه الخطاب وتبلوره فضلا عن جملة من الظواهر اللغوية الأخرى التي تتيح للمتكلم أن يعبر بالعدالة من الصعيد السيكلوجي الصرف إلى آفاق أعقد وأعمق من حيث الإيحاء والتكثيف سواء كان ذلك في مستوى الدوال أو المدايل. هذه الظواهر التي تعني صرفية وتركيبية ومعجمية لا يعني عدم الوعي بأهميتها ونحزونها عن مسالك التأثير وضروب التوجيه اللغوي والرواوي. من هذه الظواهر: النحت، الدخيل، التركيب المزعج، المولد، المعرب، الإحداث... وهذه النماذج المذكورة إلى مجال الاشتقاق المعجمي أقرب وإن كان حضورها في سياق الخطاب قد ينتج مسائل تركيبية متعلقة بها.

عند سرد هذه النماذج، كنت أضع في الاعتبار نصّاً روائيا تونسيا صدر في طبعته الأولى في أبريل 1998، عنوانه "بروموسبور" أنشأه حسن بن عثمان وقد عرفناه قصاصا على الأقل عبر مجموعتين قصصيتين مطبوعتين "عباس يفقد الصواب" و"لا فوق الأرض ولا تحتها".

قد يكون من غير الوجهي - حسب قارئ متعجل - الاعتماد على المجال اللغوي فقط لمقاربة نصّ روائي لا سيما وقد تظاهر النقاد على اعتماد علم السرد والمناهج الشكلانية والإنشائية والسيمائية لتحليله ونقده، فكان الرؤية إلى الأثر من زاوية النظر اللسانية اللغوية الصرفة، بصرّ بالأثر ضعيف ونظر إليه حسيّر. والحق أن هذا الادعاء حق إذا ما اقتضى العمل المقترح أن يكون الأمر تحقيق قول في تلك المسائل اللسانية المعجمية تحقيقا جافا "موضوعيا" موسوما بالحيدة وانعدام الماء، والحال أن ما ذكرنا من أمر اللغة ومسائلها، أولى أن يُعدّ من بين



المدخل المباشرة في النص الأدبي وما يفتح عليه من أبعاد وأفاق دلالية ورؤياوية. ليست (برومسبور - روبافيك - باله - الشكاير - الدكّانة...) مجرد كلمات مُدرّاة في هذا النص الروائي نظرية القصد منها إكسابه واقعيةً والتأني به عن الكلاسيكية والمثالية والطوباوية، بل هي إلى ذلك مفاتيح ينفذ عبرها القارئ إلى مسافات تأويلية تُرشّح بتفسير الواقع بسوداوية وشراسة هائلتين.

فكأن حسن بن عثمان قد فصل القول في أمر استعمال اللهجة الدارجة في العمل الأدبي، فهو "يمرّر" كلمات وصيغا وجملا على شاكلة تلك الكلمات الدخيلة منضويا تحت لواء البشر خريف<sup>1</sup> صاحب "برف الليل" وإن كان صاحبنا أقلّ احتفاءً بما إذ هو يستعملها مقتصدا لا مبذرا وما يزدريه من ألفاظها وجمليها في جسد نصه إنما يقويه ويث صلابته، بل يفيض عليه أصالة وواقعية، فللعامية فصاحة ألفاظ وبلاغة معان بما تعانق العربية الأم وترتمي في أحضانها دون اعتراك وهي أو جدال زائف، فما دخل في كلام العرب فهو من كلامهم (كما أقر أبو عثمان بن جني صاحب "الخصائص" بأن "ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب").

لقد مرّن المؤلف لفته وطوعها لتحلّ فيها روح تشاؤمية طاغية ذات نبرات حكمية لاذعة تفتّز القارئ وتذيه في بوتقة النقد والسخرية، خاصة وقد ألقى نزعاً لدى المؤلف "أفعوانية" كاسحة جعلته يضحك على قارته الضمني وهو به عليم غير ناكِر ذلك وقد رضي لنفسه أن يكون إمعةً مقلداً تابعا، حيث إن ما يكشف عنه حسن بن عثمان هو وجه القضية المتعقّب أما قفاها فمطمور في المسكوت عنه. إذ يعمد الروائي إلى ازدواجية مُربّعة في تمرير خطابه بمعنى جعله مرا، وبمعنى "دحاه على وجه الأرض" إذن على جسد النص "وذخوه إلى قارته دحواً كأنه كرة من جلد تُقذف فلا تولى ويلتدّ بها قاذفها وملتقيها إن كانا من نفس الفريق. وهذه الازدواجية تتمثل في جملة من المظاهر يتسع مداها ويضيق :

فمن أوجهها إن الروائي قد عمد إلى سابقة أدبية في حياتنا الثقافية المحلية المعاصرة، إذ شكل لنصه "لجنة قراءة صارمة" (كأن روايته أطروحة دكتوراه دولة؟؟) وذلك قبل العزم على طبعها زاعما سببا وجهها لذلك هو قوله "حتى لا يعرض على الناس سلعة مغشوشة" (ص5) لكن ألا يدعو ذلك قارئنا ماكرًا إلى التشكيك في مصداقية هذا الزعم حيث إن لجنة القراءة إن هي إلا عملية دعائية مسبقة في صفوف المثقفين أصدقاء المؤلف ممن يرى فيهم موجهًا للقراء المنتظرين والمتنظرين للرواية المنجزة بعد مخطوطا ولمّا طُبع؟

<sup>1</sup> البشر خريف من أعلام الرواية في تونس من رواياته "الدقلة [أنوع من التمر] في عراجينها" و"برق الليل" وقد أشاد الروائي السوداني الطيب صالح بهذه الأسماء. ومعروف عن خريف أنه اختار كتابة الحوار باللهجة العامية دون تكلف نقل محتوى الحوار بين شخصيات شعبية إلى اللغة العربية الفصحى.

ولكن أليس المغرب من استهجان الروبافيكاً<sup>2</sup> - وهو شعور حقيق بأن يلتبس بقرء الرواية بمن شملهم هذا المصطلح الاجتماعي اللباسي الأصلي، الثقافي الامتداد-، ادعى للقرء بأن يستيقظوا على مكر الكاتب وقد أوهم بالجدة هذه "الفلة" الأدبية والحال أنه يقدم لنا نصاً مستهلكاً منذ البداية. أليست هذه الرواية (إن صح) أنها رواية وليست مشروعا تجاريا صميما) قطعة من الروبافيكاً؟ بل أليس قرأوها - في صيغتها الحالية - قرءاً من الدرجة الثانية؟

إن هذه الحيلة الدعائية تفرض على القارئ ركوب هذا النص وقد توهم أنه مركب ذلول، فيشتبهه، والحال أنه يعصف بقوانين الكتابة الروائية وثوابتها.

أليس مكر "عثمانيا" صميما، تحويل خطابات النقاد والمثقفين والجامعيين وانطباعا لهم المجاملة من حيز ذوقي نقدي شخصي إلى مجال إشهاري ترويجي عام؟ إن حيلة حسن بن عثمان وتحسبه من كساد مشروعه الأدبي - التجاري قد جعلاه ينحو هذا المنحى القائم على حسن استشراف المسالك المحابطة للعملية الإبداعية، حتى يضمن للأثر المنشأ حسن التلقي وجودة التأني.

وهذه السياسة الأدبية تجعل القارئ عاديا أو غير عادي يسلس القيادة ويذعن للنص وشروطه القرائية. ولكن أمر النص آخر.

إنه نص الكشف والانكشاف في آن. فهو يعري المستور ويفض الختم ويحترق الحجب وقد استلزم ذلك أن يكون الراوي عليمًا بما يحول في حلد عباس الشخصية الرئيسية<sup>3</sup> من هواجس وأفكار ومشاريع. ولكن الراوي

<sup>2</sup> فضلا عما يطرحه مصطلح (روبافيكاً) من مسائل معجمية متعلقة بأصله الدخيل الإيطالي على الأرجح، فإنه يُعد في هذا العمل الروائي مجازاً مولداً بمعنى وهي "استعمال اللفظ" فهي تولد دلالية تأويلية متعلقة بالمحانة وانعدام التميز وقندان البكارة...

<sup>3</sup> حرف السين حاضر في معظم أسماء شخصيات الرواية (عباس، سبسي، نفيسة، سعدون، السمدي، سلمى) وهو حرف يوحي بالمس والصفير، مما يجعل العلاقة بين هذه الأسماء قائمة على السر والتخوي، رغم لحظات التوتر والتوران التي تفرجها عن هذا الطور الساكن إلى حرب شعواء.

ويمكن مقارنة أسماء الشخصيات من جهة مدلولاتها المعجمية فعباس كثير العبوس وسلمى توحى بالسلام والسلام ونفيسة توحى بالاختلال فهي على وزن فعل بمعنى مفعول أي متحمل للفعل، أما سعدون، فاسم ترابي ذو مرجعية أندلسية فهو مزيج بين (سعد) وهو الفأل واللاصقة (ون) وهي لائنية تغيد الجمع أو التعظيم، ونقرأ سعدون اسماً في علاقته الجدلية باللقب "الحشب"

إلى ذلك يلبس بُرُقع الموضوعية فيصير يوزع أدوار الكلام بين الشخصيات المتحاورّة متخذًا دور المعلق "الخايد" الذي يضع القارئ في إطار التخاطب بمدّه بمعلومات لصيقة بمحتوى الحادثة وظروفه. وتشيع نبرة تحريية واقعية متميّزة في هذه الرواية، تصف الواقع وتشخص الراهن في قوالب غير مكرّسة في الخطاب السائد، فيصرّح سيسي الكاتب في لحظة تشاؤمية: "فقد يحتاجون إلينا لنستأنف القيام بمهمتنا الأزلية: إشاعة ثقافة الذهن والمخ، أما الآن فالوقت لثقافة البدن، فلنخلّ الساحة للكوارجية حتى يلعبوا ما شاء لهم اللعب فلترفع للأبدان أوّثان يتزلف لها الجماهير ويعبدونها" ص199.

إنّه حلم يوطوي أن يصير الناس إلى تقدّم اللذائذ العقلية على اللذائذ الحسية، فحتى شق كبير من الخاصة ليسوا بقادرين على ذلك، فكيف بالعوام؟

إنّها أزمة متعلّقة هذه التي يصرخ سيسي من فرط وطأها على الساحة: فأغلب الناس مطبوعون على طاعة غرائزهم وإجابة شهواتهم، ولكن ذلك إن هو إلا إغراط لهذا النموذج في تيار البكاء العربي على الهوان وحتى المثقفين على ظاهرة الاستهلاك التي تفاقمت حتى ألقت بظلالها على المجال الثقافي الإعلامي حتى أنّ الصحفي يغير وجهته من البحوث الاجتماعية إلى التعاليق الرياضية طلبًا للتفان وقبول القراء، فما يدعو إليه سيسي من طرف خفيّ إنّما هو إقامة توازن بين الشواغل الذهنية الدقيقة والاهتمامات الجسدية القائمة دون أن ينكر قيمة الثانية أو يفوق الأولى عليها ( ولعل ما نزعّمه من رغبة في التوازن إنّما يعكس ميل المؤلف على لسان سيسي إلى اعتماد السجع مما يجعلنا نستنتج من ذلك أمرين على الأقل:

1 أولهما: أنّ التوازي المحدث بين كلتا السجعتين (ثقافة الذهن / ثقافة البدن) يؤدي في رؤية توفيقية إلى التكامل لا التفاضل كما يلوح للوهلة الأولى.

2 ثانيهما: أنّ مجرد الرجوع إلى أسلوب السجع وهو خصيصة من خصائص النثر الفني الكلاسيكي في

---

فالاول ذو قيمة دلالية إيجابية والثاني ذو قيمة دلالية سلبية... وفي ذلك وجه أن الروائيكيا استعارة - مفتاح (الاستعارة هنا بمعنى ألفا نوع من مطلق المجاز<sup>11</sup>) من وجوه الالتباس والتفان الاجتماعيّ.

الخطب والأخبار والمقامات، إنما يوحي بأن الأزمة المُعبر عنها ضمن هذا القالب الأسلوبي ليست جديدة بل هي تستمد جذورها من التاريخ، بل لعلها في صيغتها التي نسجها عليها المؤلف إنما هي استعادة عصرية لأزمة المثقف الأبدية مع الذوق العام والآراء السائدة، وهي استعادة تحافظ بالطبع على جوهر الخلاف بين الطرفين وتلونه بخصوصيات الوضع المحلي والعالمي الجديد.

لقد غرقت الرواية في السوداوية وأشرفت على القنوط وكان الوجودية السارترية أو الكاموية قد بعثت من مرقدها في شكل محلي ضيق ولكنه ذو أبعاد إنسانية شاملة.

إنها رواية - مانيفاستو (بيان)، تجمع رؤية للعالم إلى رؤية إلى ذاتها في ضرب من الالتحام والتضافر صميم ألم يقل سيسي عنها إنها "لون من شحذ القنطرة لطعن الظلام" (ص 198)؟ أليس في هذا نوع من اللعب على أوتار ذهن القارئ يحرضه المؤلف على أن يشتق من الرواية لا حلا جاهزة لما يسود في مشاكل - ومنى كان الأثر الفني مشروعا إصلاحيا؟، بل وعيا عميقا بالوعي الإنساني في مظاهر معينة اعتبرها المؤلف قضايا أمهات اجتماعيا وثقافيا.

وإذا بالنص يستعيد أسئلة وجودية عثرت عنها الفسفة وكذا علم الكلام الإسلامي والتبولوجيا اليهودية - المسيحية، فإذا الروائي يلبسها لباسا معاصرا بأن وصف معطيات العلم الاختيارية وقد أصبحت مشاعا للبشرية، في مقارنة المسائل ذاتها، وإذا بالعلم التجريبي يصاهر التيار العنشي ليشكلا معا رؤية للعالم وللوجود قوامها المصادفة لا الضرورة مما يشرع للبرومسيور (وهو لعبة الحظ والمصادفة) أن يكون نشاطا مرغوبا فيه شعبيا، فهو المعبر بحرارة عن الرؤى والخلفيات العلمية والأدبية الرائجة.

وكان دعوى الرهان والمراهنة التي يروج لها الراوي، هي البديل النفسي الرئيسي للإنسان ليتجاوز حيثيات حياته اليومية وملابسها الموغلة في التفاهة والرتابة مما يوجه جهود الإنسان إلى بعد واحد، فتكون ممارسات الحياة وتفاصيلها غارقة في الروتين المقيتة لا سيما وأن شخصيات الرواية مثل أحداثها (البرنامج السردية) مكشوفة، إذ هي غمضة تعبر عن انتماء طبقي واجتماعي وثقافي صريح، مع إفساح مجال للراوي يستطرد شارحا للوضعية وكاشفا للخلفيات ومعربا لظواهر اجتماعية يقيها الخطاب العقلن مستورة، فيفضح ما طابت له الفضيحة مستغلا مواهبه الصحفية المتحفزة التي يرفع بها التراب عن طبقات من الممارسات الاجتماعية المريية، وكان كشفها بداية المكاشفة والمحاسبة.

غير أن الراوي لا يتورط في إلقاء حُطْب بلغة مُسْقطة، بل هو يستنطق الأحداث ويشرحها معلقا في ضرب من السذاجة الماكرة الساخرة ختامها العلقم والمرارة. وكان النقد -وهو مرمى من مرامي الخطاب الإبداعي "الملتزم" - يقوم على انتزاع تعاطف القراء عن طريق سبهم وشتمهم، وكأن القراء أيضا لا

الشخصيات فقط، عريكة بين يدي الراوي يصرفهم كيف شاء فقد اكتشفت مسالك التأثير فيهم بطرق مواربة ملتوية أوقعته عليها خبثه المكثفة بعوالم الرواية والتحام الراوي بالكتاب مما يسهل عليه أمر الانتماء بها.

لقد غمس الراوي قارئه في أجواء عفنة وأوقعه في مداخل شديدة العمق، لم يترك له من حل سوى الانسياق في قانون اللعبة المارق وقد عمّ الإحباط جميع المشاركين في اللعب سواء مباشرة أو بالتفريج والمتابعة. إنه خليط من العلاقات المشبوهة والأوساط الموبوءة حيث يعمّ المرض والشذوذ والوصولية والغشّ والنفاق....، إنها ببساطة مظاهر الفساد والقوضى المستشرية يعرضها الراوي في تخارج مطلق عن المثالية التعليمية أو الطوباوية الرومنسية، متأرجحا بين الواقعية النقدية والزعة التحريدية في بعض الحيل الشكلية منها الموازنة بين عدد الفصول وعدد قواعد البرومسبور ، ومنها اتخاذ عنوان فرعي للرواية يجعلها تنتمي إلى الخطاب الرياضي الصحفي لا إلى الخطاب الأدبي<sup>4</sup>.

لقد أنشأ حسن بن عثمان نصّه بالاعتماد على قدراته اللغوية المتنامية (مقارنة بالمجموعتين القصصيتين<sup>4</sup>) واهتماماته المتناقضة، فأنشأ عملا قائما شكلا ومضمونا مُشاكلا للواقع يلامس منحياته وأعطافه في ضرب من عدم الحياء إيجائي، يتخسّس مواضع الوهن ويضع الإصبع على الداء، فقد أيقن المؤلف أنّ الإيماء والإيماء والإلحاح والإشارة... لا تكفي، فما يُعني عنها جميعا إنما هو التصريح بل أكاد أقول التصريح بمعنى إتيان الجرح ورشّ المُلح عليه بدل الملمته وتضميده. إنها صراحة مُرة مبالغتها تنحو بالكون الأدبيّ المتسامي إلى دركات المتاجرة على حساب الأدب ولكن ذلك إنما يخدم في نهاية الأمر الشأن الأدبيّ لا هوايه وممارسة ظرفية وعرضية، بل بحالا حيا لكسب القوت بدخول الدورة الاقتصادية كالبرومسبور تماما، فضلا عن الأجر الرمزي المتمثل في تقدير القراء للكتاب وقد عبّر عما يجول في أذهانهم من أسئلة الراهن والمستقبل تعبيرا إشكاليا مضغوطة لا بدعي الكمال بقدر ما يرون إلى كشف الحال. إنها في كلمتين: رواية الصراحة والإجراج وكفى .

<sup>4</sup> كتب حسن بن عثمان "عباس يفتد الصواب" و"لا فوق الأرض ولا تحتها" وهما مجموعتان قصصيتان قبل رواية "برومسبور" وكتب روايتين بعدها وهما "ليلة الليالي" و"شيخان".

## منهج ابن عطية والزمخشري في تفسير

### آيات الأحكام

#### "سورة النساء نموذجاً"

بقلم د. صالح داسي

تمهيد:

الطاهر ابن عاشور في تفسير الآية: "والتدبر: التفكر والتأمل الذي يبلغ به صاحبه معرفة المراد من المعاني، وإنما يكون ذلك من كلام قليل اللفظ كثير المعاني التي أودعت فيه ...

وأولوا الألباب: أهل العقول وفيه تعريض بأن الذين لم يتذكروا بالقرآن، ليسوا من أهل العقول، وإن التذكر من شأن المسلمين الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه" 2. فإذا استحباب المسلمون إلى إعمال الفكر والتدبر وأحكموا استعمال العقل فيما تناهى إليهم صدق فيهم قوله تعالى: "إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون" النحل: 12.

لذا تحتم ونحن في زمن اليقظة العلمية والفكرية، أن نتلمس منهج السلف في عصر الناعة الفكرية لدى علمين من أعلام التفسير كان لهما الأثر الكبير في المشرق والمغرب إلى يومنا هذا، وأعني هما

إن هذه المقارنة تندرج ضمن منهجين متكاملين في علم التفسير لكتاب الله تعالى وأعني بهما: الأثر والنظر، أو الرواية والدراية، أو المنقول والمقول، على اعتبار "أن نتاج العقل يصبح مع مرور الأيام تراثاً، أي نقلاً... ذلك أن ما يقضي إليه العقل في عصر ما، هو محلّ للتجاوز في عصر آخر، ضرورة أنّ ذلك النتاج العقلي، إنما يمثل في واقع الأمر إفرازا لخلفية ثقافية مرتبطة بالزمان والمكان، ودرجة تطوّر المجتمع" 1. والفكر الإسلامي إذا توقف على الموروث كان صورة باهتة لا بداع السابقين لاهمّ له إلاّ الاجترار، وتحبّب الإضافة. فكان كالمعبد الذي لا يقدر على الهضم فيقيء ما يقدم له، لأنه يتخاف قول الله تعالى: "كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبّروا آياته وليتذكر أولوا الألباب" ص 29 قال محمد

لناحية كبيرة قصبتها الجرجانية، وهي ولاية متصلة  
العمارة متقاربة القرى وكلهم معتزلة 5.

ولد بخوارزم في رجب سنة 467 هـ، وخوارزم من  
الإقليم الفارسي حيث كان مذهب الاعتزال على  
عهده لا يزال يجد مأوى خصيصا 6. وشدة البرد  
أثرت تأثيرا شديدا في الزمخشري مما جعل إحدى  
رجليه تسقط فكان يمشي في جاون 7 خشب.

قدم بغداد وسمع الحديث وتفقه فأخذ النحو عن أبي  
مضر منصور، كما اجتمع بالفقيه الحنفي الدامغاني  
8، ثم رحل إلى مكة 9.

مؤلفاته: ترك مؤلفات كثيرة منها:

1- ربيع الأبرار وقصص الأخبار  
2- الفائق في غريب الحديث، كما يسمى الفائق في  
تفسير الحديث

3- المفصل في صناعة الإعراب

4- ديوان الشعر

5- أساس البلاغة في اللغة

6- متشابه أسامي الرواة

7- النصائح الكبار والنصائح الصغار

8- ضالة لئانشاد والرائض في علم الفرائض

9- الأنموذج في النحو

10- المفرد والمؤلف في النحو

11- رؤوس المسائل في الفقه

12- شرح كتاب أبيات سيبويه

13- المستقصى في أمثال العرب

14- صميم العربية

الزمخشري، "صاحب الكشف، وابن عطية  
صاحب "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز".

إذا ما تصفحنا الكتابين وجدنا المعقول يتقنى  
المنقول، والمنقول يدعم المعقول، حتى لا تكون هناك  
طفرة، أو انبثات، أو اجترار وتوقف وعدم استجابة  
لمقتضيات الحياة الإنسانية في مختلف العصور، فليس  
في أصلي الإسلام: القرآن والسنة إقصاء للعقل،  
وليس في تاريخ الحضارة الإسلامية إلغاء للنقل "لأن  
العقل والنقل في الإسلام متضافران، بمعنى أن صحيح  
المنقول موافق لصريح المعقول" 3.

بل إن الأحكام الإسلامية لا تتوجه لفاقد

العقول، وإنما للبالغين الأحرار القادرين من العقلاء،  
فمن كان كذلك تعلق به الخطاب الإلهي والتكليف،

ومن فقد صفة من تلك الصفات سقط عنه

التكليف، سقوطا مطلقا أو إلى حين. وقد ألف تقي

الدين ابن تيمية في هذا المجال كتابا سماه "الجمع بين

العقل والنقل" 3.

فما هو منهج ابن عطية والزمخشري في تفسير آيات

الأحكام من خلال سورة النساء؟

قبل استعراض منهما لا بد من التعرض ولو بإلمام إلى

حياة كل منهما ومسيرهما العلمية؟

1- حياة الزمخشري "467-538هـ"

1075م-1144م

هو محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي

الزمخشري "أبو القاسم" جار الله 4 وخوارزم اسم

الدَّريّة، والثاني الرّواية، وأنا في كلا البابين ذو بضاعة مزجاة، ظنّي فيه أقلص من ظلّ حصاة" 12، فهذا منتهى التواضع الذي يحسن أن يكون لدى العلماء، وخاصة علماء التفسير والحديث والفقه، كما أنه اعترف بفقر الرّواية الذي يعتمد النقل، اعتماده للدّريّة.

2- حياة ابن عطية : [481هـ - 541هـ]

1088م-1147م

نسبه: هو عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن غالب بن تميم بن عبد الرؤوف بن عبد الله بن تميم بن عطية المحاربي، القرناطي المالكي [أبو محمد] ينتهي نسبه إلى مصر بن نزار بن معدّ بن عدنان .

ولد سنة 481هـ/1088. كانت ولادته في أول عهد المرابطين بغرناطة، وتوفي سنة 541هـ/1147م 13، بلورقة في رمضان، كما يقال لورقة، وهي مدينة في شرق الأندلس غربي مرسية ها حصن 14. خلافا لما أورده صاحب نفع الطيب من أنه توفي سنة 546هـ، وخلافا لابن بشكوال صاحب [الصّلة] من أنه توفي سنة [542هـ]، والأرجح أنه توفي سنة [556هـ] وهو ما اختاره الرجيلي في كتابه [مرجع العلوم الإسلامية] 15.

أما والده أبو بكر غالب بن عطية، فقد كان فقيها زاهدا وعبدًا 16، فنشأ ابن عطية في بيت علم وأدب وصلاح، عاصر مروان بن زهر، [ولد سنة 485هـ]، وابن طفيل، [ولد سنة 581هـ] وابن رشد الفيلسوف [ولد سنة 520هـ] 17.

15- سائر الأمثال

16- ديوان التمثيل

17- شقائق النعمان

18- شافي العي من كلام الشافعي

19- القسطاس في العروض

20- معجم الحدود

21- المناهج في الأصول

22- مقدّمة الآداب

23- ديوان الرسائل

24- الرسالة الناصحة

25- الأماشي في كل فن

26- الكشف عن غوامض التزويل وعيون الأقاويل في وجوه التزويل. قال ابن خلدان: "لم يصنّف قبله مثله" 10. وانتشر خبر الزعرشري في البلاد المجاورة فما "دخل بلداً إلّا واجتمع عليه أهلها وتعلموا له، وما ناظر أحداً إلّا وسّلم له واعترف به، ولقد عظم صيته وطار ذكره حتّى صار امام عصره" 11.

كان معتزاً بانتمائيه للاعتزال حتّى نقل عنه "أنه كان إذا قصد صاحباً له واستأذن عليه في الدّخول يقول لمن يأخذ له الإذن : قل له أبو القاسم المغربي بالباب"، لكنه مع هذا كان متواضعاً تواضع العلماء، وهذا نستشفه من رسالته التي بعث بها للحافظ أبي الطاهر أحمد بن محمد السّلفي بالإسكندرية حيث قال له فيها: "ما مثلي مع أعلام العلماء إلّا كمثّل السّماء مع مصابيح السّماء... وما التلقب بالعلامة إلّا شبه الرقم بالعلامة، والعلم مدينة أحد بابيها



وقد أشرت إليه في دراستي [أحكام القرآن من خلال سورة النساء - مقارنة بين الإمام الشافعي والطبري وابن الفرس] عبد المنعم الغرناطي المالكي. 4- ومن تلاميذه أحمد بن محمد الأنصاري 5- الحسن بن علي بن هشام الغرناطي 6- محمد بن جعفر الأنصاري المرسي البلنسي 7- محمد بن خير أبو بكر الاشيلي 8- أحمد بن طلحة بن طاهر 9- عبد الله بن طلحة بن أحمد بن عطية البخاري الغرناطي، وغيرهم كثير . 22.

عصره: في أواخر القرن الرابع الهجري والقرن الخامس، زحرت الأندلس بنهضة علمية، نافست فيها الشرق منافسة قوية خاصة في العلوم والآداب، وبدأت الشخصية الأندلسية تبرز، رغم ما أصيبت به من الإنقسامات السياسية في القرن الخامس، هذه الإنقسامات كانت عاملا في تنافس الأمراء في فنون الآداب والعلوم، فنشأ عن كل ذلك في هذا العهد أعلام خالدون مثل: أبي عمرو الداني شيخ القراء، وابن حيّان عميد المؤرخين، وابن سيده صاحب المخصص، وابن بسّام، وابن عبد البر، وابن خاقان وغيرهم 23.

كما كان يشارك في الغزو يقول محمد الفاضل ابن عاشور [كان في آخر دولة المرابطين كثير الخروج للغزو في جيوشهم] كما استنتج أنه ألف تفسيره [قبل هذا الدور الأخير من دولة المرابطين باعتبار أن تاريخ وفاته 542، هو عين تاريخ انتهاء دولة المرابطين بالأندلس] 24.

كما كان ابن عطية عالما مشاركاً، ألف في الفقه والحديث والتفسير والنحو واللغة والأدب. تولى القضاء بمدينة المرية [وهي مدينة كبيرة من كورة البيرة من أعمال الأندلس، كانت هي ولجّانة بابي الشرق، ومنها يركب التجار، وفيها مرفأ للسفن والمراكب] 18.

كما رحل إلى المشرق ومن الأرجح أنه كان [ملازما لوالده في هذه الرحلة التي قام بها لتلقي العلم من منابعه، ومن الملوكد أنه اشترك معه في الرواية والتقييد، ثم عاد إلى الأندلس ليعزج بين ثقافتين وأسلوبين، يلتقيان في هدف سام وغرض نبيل] 19.

شيوخه: 1 والده الذي كان إماما في الحديث وحافظا للسنة، وكان يشجّع ابنه على إعداد تفسيره وإتمامه 2- محمد بن فرج مولى ابن الطلاء 3- أبو علي الحسين بن محمد الغساني المتوفى سنة 498هـ 4- أبو علي الحسين بن محمد الصوفي المتوفى سنة 514هـ 5- الفقيه عبد الله محمد بن علي حمد التعلبي المتوفى سنة 508 هـ 6- أبو الحسن علي بن أحمد الباذش 7- عبد الرحمن بن أيوب المالقي 20. كما كانت له رحلات في طلب العلم فرحل إلى قرطبة وإلى اشبيلية، ومرسية، وبلنسية 21.

تلاميذه : منهم 1- أبو جعفر بن مضاء 2- أبو قاسم بن حبّيس 3- عبد المنعم ابن الفرس صاحب كتاب [أحكام القرآن، أو تفسير ابن الفرس]، وتوجد منه نسخة خطية بالمكتبة الوطنية بتونس قسم الاحمدية تحت رقم 04923 / 1.

فما هو منهجهما في تفسير آيات الأحكام من خلال

سورة النساء؟

لا يمكن إجراء المقارنة بينهما من خلال السورة كلها

لسببين اثنين:

أولهما: أن سورة النساء تكاد تكون كلها آيات

أحكام:

ثانيهما: اتساع الموضوع مما لا يسمح أن يكون

بحثاً، وإنما تأليف مستقل

لذا فإننا سأقتصر على أحكام سبعة مختلفة في سورة

النساء، استبين فيها بصفة خاصة معالجة كل من

المفسرين هذه الأحكام ثم أخلص إلى الإشارة إلى

منهجهما بصفة عامة من خلال آراء الدارسين

والباحثين في كتابيهما ومن خلال ما استقام لدي

من الدراسة لأثريهما

تقدم السورة:

هذه السورة مدنية بإجماع القراء. عدد آياتها مائة

وخمس وسبعون، عند الكوفيين، وست وسبعون عند

البصريين، وسبع عند الشاميين 27.

وفي ترتيب المصحف هي السورة الرابعة: نزلت بعد

المتحنة، وتسمى سورة النساء الكبرى، والطلاق

الصغرى.

أولاً: مسألة تعدد الوجات

قال تعالى: "وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى

فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث

ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت

أيما نكحتم ذلك أدنى ألا تعولوا" النساء: 3

3-مقارنة بين منهجهما في التفسير:

هل يجوز المقارنة بينهما أم لا؟ فإن كانت فكيف

تكون بين معتزلي وسني؟

وكيف تكون بين مشرقي ومغربي؟ وهل ابن

عطية من المفسرين بالمأثور فقط؟ أم من الذين

يجمعون بين النقل والدراسة؟ وهل الزمخشري من

الذين يعتمدون العقل دون النقل؟ أم يقرّ النقل

ولكنه يؤثر النظر على الأثر؟.

هناك من نفى المقارنة الخاصة بينهما والدقيقة

[وذلك لبعد ما بين منهجي هذين التفسيرين

العظيمين خصوصاً في الجانب اللغوي] أما إذا وقع

[اعتماد الصلات العامة لهذه المقارنة فهي ممكنة]

25. وقد أشار محمد الفاضل ابن عاشور إلى إمكانية

المقارنة وذلك بقوله: [فذلك لا يفترض أن أحدهما

هذين المفسرين اعتمد على الآخر واعترف منه، بل

نجزم بأنهما اعتمدا على أصول مشتركة واعترفا من

منايع متحدة، وذلك ما يسمح لنا بأن نضم أحد

التفسيرين إلى الآخر على معنى المقارنة والموازنة بين

أثنين مستقلين متحدين في الموضوع والمنهج والعصر

[ 26، لذا فإن المقارنة بين منهج الزمخشري في

الكشاف، وبين منهج ابن عطية في المحرر الوجيز،

ممكنة اعتماداً على الصلات العامة، أي الأصول

المشتركة، فإذا اضيف إلى كلّ ذلك تعلق عملهما

بموضوع واحد، ألا وهو تفسير كتاب الله العزيز،

مع المعاصرة، سمح لنا القيام بهذه المقارنة.

الأخير خاصة، وقد قرن ذلك بالمال الخاص، دون أموال اليتامي.

أما الزمخشري فإنه أغرق كثيرا في التواحي اللغوية المتعلقة باليتامي، وهو يطلق على الإناث والذكور، كما تعرض إلى أوجه القراءة في تقسطوا فهناك من قرأ تقسطوا بالفتح، وهي قراءة النجعي، وإلى قراءة إبراهيم ثلاث وربيع على القصر من ثلاثي ورباعي ثم خلص إلى بيان قوله تعالى: "فإن خفتم ألا تعدلوا" أي بين هذه الأعداد، كما خفتم ترك العدل فيها فوقها. [فواحدة] فالزموا أو فاختاروا واحدة فذروا الجمع رأسا، فإن الأمر كله يلدو مع العدل فأيضا وجدتم العدل فعليكم به ثم قال: وقرأ ابن عتبة: من ملكك [لذلك] إشارة إلى اختيار الواحدة والتسري [أدق ألا تعدلوا] أقرب من أن لا تميلوا... وقد روت عائشة رضي الله عنها عن رسول الله أنه فسر أن لا تعدلوا: أن لا تكثر عيالكم لأن من كثر عياله لزمه أن يعواهم، وفي ذلك يصعب عليه المحافظة على حدود الشرع، وكسب الحلال والرزق الطيب. ثم قال: وكلام مثله من أعلام العلم وأئمة الشرع، ورؤوس المجتهدين تحقيق الحامل على الصحة والسداد... ثم قال: ولذلك جاز العزل عن السراي بغير إذن، فكان التسري مظنة لقله الولد بالإضافة إلى التزوج، كتزوج الواحدة بالإضافة إلى تزوج الأربع 30. إنه ربط التسري بقله الوالد، وذلك بجواز العزل لدى الساري، ومن ثم فإن التزوج بواحدة هو الذي يميل إليه الزمخشري بقرنتين :

قال القاضي أبو محمد، قال الضحاك وغيره: "المعنى ألا تعدلوا في الميل والمحبة، والجماع والعشرة بين الأربع، أو الثلاث أو الاثنين، ويتوجه على قول من قال: إنما نزلت فيمن يخاف أن ينفق مال اليتامي في نكاحاته، أن يكون المعنى: ألا تعدلوا في نكاح الأربع والثلاث حتى تنفقوا فيه أموال يتاماكم، أي تزوجوا واحدة بأموالكم، أو تسروا منها، ونصب واحدة بإضمار فعل تقديره، فأنكحوا واحدة. وقرأ عبد الرحمن بن هرمز والحسن: فواحدة بالرفع على الابتداء، وتقدير الخير: فواحدة كافية، أو ما أشبهه ورويت هذه القراءة عن أبي عمرو. [وما ملكك لئمانكم] يريد به الإماء، والمعنى: إن خاف ألا يعدل في عشرة واحدة فما ملكك يمينه... واليمين مخصوصة بالخاص لتمكنها 28. فقد اعتمد النقل والرواية عن الضحاك، كما ذكر أوجه القراءة لواحدة، فذكر وجهة من قرأ بالنصب ووجهة من قرأ بالرفع، فهو كما اعتمد الرواية، اعتمد الناحية الإعرابية. وكأني به يشير إشارة العالم الفطن إلى الاكتفاء بواحدة وهذا يدرك من منطوقات ثلاثة له: الأول: قوله: [فأنكحوا الطيب، وهذا الأمر بالنكاح هو نذب لقوم، وإباحته لآخرين بحسب قرائن المرء، والنكاح في الجملة والأغلب مندوب إليه.].

الثاني: عندما ذكر قراءة من قرأ واحدة بالرفع على الابتداء، وتقدير الخير: فواحدة كافية.

الثالث: من قوله: [أي فتزوجوا واحدة بأموالكم أو تسروا منها] وكأني به يعطي موقفه الفاصل ورأيه

لأنها صلة لأن وهذا ترجيح ليس بالقوي ولكنه حسن وأن في موضع نصب.

ومن نصب [تجارة] جعل اسم كان مصمرا تقديره الأموال أموال تجارة، فحذف المضاف واقیم المضاف غليه مقامه، أو يكون التقدير: إلا أن تكون التجارة تجارة، ومثل ذلك قول الشاعر:

إذا كان يوما ذا كواكب اشعنا

ثم خلص لإل نوع الاستثناء، وإلى الككم الترتب عن قراءة من قرأ [تجارة] بالرفع جائز بإجماع الأمة، والجمهور على جواز الغن بالتجارة<sup>32</sup>.

• كما أنه لا يلزم الوقوف على رأي الامام مالك وإنما يذكر آراء غيره من أئمة الفقه مثل الشافعي، وأبي حنيفة، كالاستغناء من قوله [ص]:

"البيعان بالخيار ما لم يتفرقا إلا بيع الخيار" قال القاضي أبو محمد: وقوله في الحديث: "إلا بيع

الخيار": معناه عند المالكيين للتساومان بالخيار ما لم يعقدا، فإذا عقدا بطل الخيار، إلا في بيع الخيار الذي عقد من أوله على خيار مدة ما، فإنه لا يبطل الخيار فيه، ومعناه عند الشافعيين: المتبايعان بعد عقدهما غيران ماداما في مجلسهما، إلا بيعا. يقول فيه أحدهما

لصاحبه اختر، فيختار، فإن الخيار ينقطع بينهما وإن لم يتفرقا، فإن فرض بيع خيار، فالعنى، غلا بيع الخيار، فإنه يبقى الخيار بعد التفرق بالأبدان<sup>33</sup> فهو يزولج بين مختلف أوجه القراءات وبين وجوه الاعراب، والاستشهاد بالشعر، مع تعرضه لمختلف مواقف المجتهدين من أئمة الفقه ويشعر أنه مدرك لما

الأولى من قوله: [فأينما وجدتم العدل فعليكم به] ومعلوم انه من الصعوبة بمكان العدل بين أربع نساء أو ثلاثة أو حتى اثنتين.

الثانية: تنويهه برأي الشافعي المتعلق بالمراد من [أن لا تعملوا] أي [لا تكثر عيالكم] ومعلوم أن التعدد ينجز عنه كثرة العيال وكثرة النسل.

وقد دعم هذا بقوله عن الشافعي: [ولكن للعلماء طرقا وأساليب، فسلك في تفسير هذه الكلمة طريق الكنايات] ثم قال: [وكفى بكتابتنا المترجم كتاب شافي العي من كلام الشافعي شاهدا بأنه كان أعلى كعبا وأطول باعا في علم العرب من أن

يخفى عليه مث هذا<sup>31</sup>. والعدل مقفود بين زوجة في العصمة، وأخرى مطلقه وبين أبنائهما فما بالك بإمرأتين في عصمة رجل واحد، أو أكثر من امرأتين؟

ثانيا: النهي عن أكل أموال الناس بالباطل. قال تعالى: "يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما"<sup>29</sup>.

أورد ابن عطية قراءة المدنيين وابن كثير وابن عامر وأبي عمرو [تجارة] بالرفع على تمام كان وأنها بمعنى وقع. كما أورد قراءة فرقة من الكوفيين حمزة وعاصم والكسائي [تجارة] بالنصب على نقصان كان وهو اختيار أبي عبيد. ثم أورد رأيه قائلا: [وهما قولان قويان، إلا أن تمام، كان يترجح عند بعض،

جنسكم من المؤمنين. وعن الحسن لا تقتلوا إخوانكم، أولاً يقتل الرجل نفسه، كما فعل بعض الجهلة<sup>36</sup>. فالذي نلاحظه أنه تناول أوجه القراءة، والناحية الإعرابية، والناحية الفقهية بما أوردته عن الإماميين أبي حنيفة والشافعي، كما لم يهمل جانب الرواية عن الحسن، وعن عمرو بن العاص، وعن علي رضي الله عنه، كما تعرض إلى العمد المستفاد من قوله تعالى: "ذلك" إشارة إلى القتل: أي ومن يقدم على قتل الأنفس [عدواناً وظلماً] لا خطأ ولا اقتصاص [نصليه] بتخفيف اللام وتشديدها، ونصليه بفتح التون من صلاه يصليه، ومنه شاة مصلية، ويصليه بالياء والضمير لله تعالى [ناراً] أي ناراً مخصوصة شديدة العقاب. فلا نكاد نشعر بشيء من تغليب الدراية على الرواية بل كان يجمع بينهما كما اتضح في كتابه [تحليل التركيب القرآني وبيان خصائصه واعتبار إعجازه على المنهج الذي مهده عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز]<sup>38</sup>، وهو مع كل هذا لم يهمل الجانب الفقهي، وهو ما أكدته محمد الفاضل ابن عاشور بقوله: [كان فقيهاً من كبار الفقهاء على المذهب الحنفي]<sup>39</sup>.

كما أنه لا ينكر الرواية وهذا ندرته من قوله: "والعلم مدينة أحد بابيها الدراية والثاني الرواية"<sup>40</sup> وعندما تجري مقارنة بين تناول ابن عطية للآية السابق ذكرها، وتناول الزمخشري لها يتضح لنا ذلك القول المأثور من أن: "ابن عطية أجمع وأخلص، والزمخشري أخض وأغوص"<sup>41</sup>.

قالوا، معبر عن وجهة نظره الفقهية مثل بيع الخيار الذي يبقى قائماً بعد التفرق بالأبدان.

وقوله تعالى: "ولا تقتلوا أنفسكم" فذكر أوجه المتأولين وحصرها في ثلاثة أوجه أولاً: النهي عن أن يقتل بعض الناس بعضاً، ثانياً: أن يقتل الرجل نفسه بقصد منه للقتل، ثالثاً: أن يجعل الرجل نفسه على غرر ربما مات منه. ثم قال: "فهذا كله يتناول النهي"<sup>33</sup> فتشعر وأنت تقرأ بيبانه هذا بأن هناك إلماماً وعمقاً بمعرفة الحكم المستفاد من الآية، وأنه يتجاوز الرواية سواء فيما يتعلق بأوجه القراءات أو الحديث النبوي على مقصد الآية بما يدل عليه دلالة اللفظ ومتعلقات الحكم، وهو ما يؤكد ما قاله ابن حبان: "كتاب ابن عطية أنقل وأجمع وأخلص"<sup>34</sup>. وهو مع هذا [لم يورد اشتاتاً من الروايات، وإنما اختار ما يراه صحيحاً، ويرفض كثيراً مما لا يتفق مع العقل]<sup>35</sup>.

وتناول الزمخشري الآية بالتفسير فقال: المراد [بالباطل] بما لا يبيحه الشريعة من نحو السرقة والخيانة والغضب وعقود الربا [إلا أن تكون تجارة] إلا أن تقع تجارة وقرئ تجارة على إلا أن تكون التجارة تجارة [عن تراض منكم ... وخصّ التجارة بالذكر لأن أسباب الرزق أكثرها متعلّق بها] - والتراضي رضا المتبايعين بما تعادوا عليه في حال البيع وقت الإيجاب والقبول، وهو مذهب أبي حنيفة رحمه الله، وعند الشافعي رحمه تفرّقهما عن مجلس العقد متراضين. [ولا تقتلوا أنفسكم] من كان من

القرآن، وابن كثير في كتابه : "تفسير القرآن العظيم" والسمين الحلبي صاحب "الدر المصون" والقوامه عنده تتمثل في الرعاية والحفظ بالاجتهاد والأفضلية حصراً في المهر والنفقة المستمرة من الزوج على زوجته.

ويرى الزمخشري أن قوامه الرجال على النساء تتمثل فيما [يقومون عليهن أمرين ناهين كما يقوم الولاة على الرعايا... والضمير في [بعضهم] للرجال والنساء جميعاً، يعني إنما كانوا مسيطرين عليهن بسبب تفضيل الله بعضهم وهم الرجال على بعض وهن النساء، وفيه دليل على أن الولاية إنما تستحق بالفضل لا بالتغلب والاستطالة والقهر، وقد ذكروا في فضل الرجال العقل والحزم والعزم والقوة، والكتابة في الغالب والفروسة والرمي، وإن منهم الأنبياء والعلماء... الخ ثم ذكر أسباب القول

فيكاد يتشابه في المنهج مع ابن عطية إلا أنه أغرق في بسط متعلقات تفضل الرجال على النساء مما جعله يستدل بالامامة الصفري والكبرى، والجهاد والأذان والخطبة والاعتكاف وتكبيرات التشريق عند أبي حنيفة، والشهادة في الحدود والقصاص وزيادة السهم والتعصيب في الميراث... الخ فهنا نجد يتوسّع في المسائل الفقهية توسّعاً لا مزيد عليه ولذا فإن ما قاله فيه الدكتور حسين النهي من كونه [لا يتوسّع في المسائل الفقهية] 45 لا يؤخذ باطلاق لأن له ما يعارضه في الكشف.

ثالثاً: قوامه الرجال على النساء

قال تعالى: "الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم" [النساء] 34.

لهذه الآية سبب نزول عن علي قال: أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجل من الأنصار بامرأة له فقالت يا رسول الله: إنه ضربني فأثر في وجهي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس له ذلك فأنزله الله الآية 42 وفي رواية أخرى أمرها بضربه.

وقرر ابن عطية القوامه والتفضيل بقوله: "قوام فعال بناء مبالغة وهو من القيام على الشيء والاستبداد بالنظر فيه وحفظه بالاجتهاد، فقيام الرجال على النساء هو على هذا الحد، وتعليل ذلك بالفضيلة والنفقة يقتضي أن الرجال عليهن استيلاء وملكاً ما، قال ابن عباس: الرجال أمراء على النساء وعلى هذا قال أهل التأويل وما مصدرية في قوله [وما]

فضل الله] ولذلك استعنت عن العائد وكذلك [وما انفقوا] والفضيلة: هي الغزو وكمال الدين والعقل، وما أشبهه والاتفاق: هو المهر والنفقة المستمرة على الزوجات] 43، ثم تعرّض إثر ذلك إلى ألوان ثلاثة من أسباب القول.

فهو يمزج بين النقل والدراية، ويشير إلى أهل التأويل، لكنه عندما يذكر النقل يتقيها ويحصنها وهذا المنهج أثر فيمن أتى بعده من المفسرين مثل ابن حبان في البحر المحيط والقرطبي في الجامع لأحكام

21- جلال الدين السيوطي : بغيعة الوعاة في أعيان التجارة ج 1 :

102 ج 2 : 116

22- المصدر السابق ج 2 : 116

23- ابن عطية : المحرر الوجيز ج 1 [ تحقيق ] أحمد صادق الملاح :

6

24- محمد الفاضل ابن عاشور : التفسير ورجاله : 75

25- د. إبراهيم عبد الله رفيدة : النحو وكتب التفسير ج 2 :

754

26- محمد الفاضل ابن عاشور : التفسير ورجاله : 75

27- الفيروز ابادي مجد الدين : بصائر ذوي التمييز ج 1 : 169

28- ابن عطية : المحرر الوجيز ج 4 : 16

29- ابن عطية المحرر الوجيز ج 4

30- الراغبري : الكشف ج 1 : 497

31- المصدر السابق : 498

32- ابن عطية المحرر الوجيز ج 4 : 91

33- المصدر السابق ج 4 : 94

33- المصدر السابق ج 4 : 94

34- ابن تبيان : البحر المحيط ج 1 : 10

35- ابن عطية المحرر الوجيز ج 1 م : 16 تحقيق أحمد صادق

الملاح

36- الراغبري : الكشف ج 1 : 522

37- المصدر السابق ج 1 : 522

38- محمد الفاضل ابن عاشور : التفسير ورجاله : 81

39- محمد الفاضل ابن عاشور : التفسير ورجاله : 81

40- ابن خلكان : وفيات الأعيان ج 5 : 150

41- محمد الفاضل ابن عاشور : التفسير ورجاله : 93

42- جلال الدين السيوطي : لآب النقول في أسباب الزوول هـ

تفسير الجلالين : 159

43- ابن عطية : المحرر الوجيز ج 4 : 103

44- الراغبري : الكشف ج 1 : 524

45- د. حسين الذهبي : التفسير والمفسرون ج 1 : 474

## المصادر:

1- د. علي الشابي : العقلانية الموصولة سلسلة آفاق إسلامية ع 7

جدلية النقل والعقل في الفكر الإسلامي ط 1 تونس وزارة الشؤون

الدينية ص 11

2- محمد الطاهر ابن عاشور : التحرير والتنوير ج 23 :

253, 252

3- د. علي الشابي : العقلانية الموصولة. سلسلة آفاق إسلامية ع 7

جدلية النقل والعقل في الفكر الإسلامي ط بنونس وزارة الشؤون

الدينية : ص 3- 12 مكرر أنظر د. محمد الرجيلي [ مرجع العلوم

الإسلامية ] ص 454 ط دار المعرفة

4- عمر رضا كحالة معجم المؤلفين ج 126 م ج 12 : 186

5- صفى الدين البغدادى : مراصد الاطلاع ج 1 : 487

6- جولد تسيهر مذاهب التفسير الاسلامي 140

7- ومنه الجونة : الحامية مطبوعة بالغار : ابن منظور : لسان العرب

م 13 : 103

8- ابن خلكان : وفيات الأعيان ج 5 : 169, 168

9- عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين ج 6 م ج 12 : 186

10- ابن خلكان : وفيات الأعيان ج 5 : 168

11- د. حسين الذهبي : التفسير والمفسرون ج 1 : 430

12- ابن خلكان : وفيات الأعيان ج 5 : 170

13- عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين ج 3 م ج 5 : 175

14- صفى الدين البغدادى : مراصد الاطلاع [ مختصر معجم

البلدان ] تحقيق محمد علي البحاي ج 3 : 1202

15- د. محمد الرجيلي : مرجع العلوم الإسلامية : 210

16- الخلقري : نفخ الطيب ج 3 : 277

17- أحمد أمين : ظهر الإسلام ج 2 م ج 3 : 246

18- صفى الدين البغدادى : مراصد الاطلاع ج 3 : 1264

19- ابن عطية : المحرر الوجيز [ تحقيق ] أحمد صادق الملاح ج 1 :

7

20- إبراهيم بن فروحون : الدجاج المنهب في أعيان الذهب :

105

## قراءة في رواية "فيضان الثلوج" لعامر بشة لماذا نكتب ... لكي لا نهلك.

دوسارتو

بقلم: محمد المحسن

إذا كان الأدب انعكاسا للواقع على الإحساس فإننا بدخولنا عوالم المبدع عامر بشة نطل على فضاءات تكون مسرحا لإنتاجات قرائية يكونها قضاء اللغة والشخص والحدث وقضاء السرد.

النصوص الروائية -لعامر بشة- تلتمس تعددتها باختلاف القراءات وتنوعها، فتظهر مستويات كتابية جديدة، تضيف على النصوص آفاقا تأويلية حسب استعداد القارئ ومرجعته، غير ناسين حقيقة أن النصوص تحتوي على دوال تساعد على تفكيك النص واستنطاقه يمكن للقراءة الواعية استحضار ما خلف النص من إحالات، وإشارة مرجعيات تثرى النصوص وتحفز القارئ.

<http://Archivebeta.Sakhr.net>

يواصل عامر بشة في روايته الثانية (فيضان الثلوج\*) تلك الرحلة السردية الشيقة التي قدّمها في روايته السابقة (البعيد\*\*) أو بالأحرى يواصل بعدا سرديا من أبعاد هذه الرحلة وهو هذا البعد الذي يمزج الذاكرة بالتاريخ، ويستقطر من أبعاد هذا المزيج نوعا من السرد الشعري الشفيف الذي تتميز به كتابته الروائية، فقد استطاع عامر بشة أن يبلور لنفسه أسلوبا سرديا له خصائصه الشعرية ومذاقه السردى الخاص في الوقت نفسه، لأنّ شعر -عامر- السردى لا ينبع من معضلات اللغة، ولا من الجري وراء المفردات القاموسية، ولا حتى من الولع بالإستعارات والصور الشعرية، كما يحاول غيره من الكتاب، وإنما من الحساسية الرقيقة للتفاصيل الواقعية البسيطة والقدرة على استنطاقها بأقصى ما في طاقتها على البوح والتغير فتبدو التفاصيل الواقعية عنده للوهلة الأولى وكأنها تقول الكثير وكأنها تفاصيل بالغة البساطة لا تخفي شيئا، ولكنك ما إن تتأملها قليلا حتى تجد أنها في حقيقة الأمر التقطير المصنّى لعالم ثري من الرؤى والدلالات...



## تظاهرات اللغة الإيحائية في المتن السردى :

يعتمد المؤلف لغة ذات طبيعة إيحائية ورمزية تعتمد الجاز مثل قول السارد في الصفحة 55 : " .. وأخشى أن تسقط الأرض في الفضاء المظلم .. بمتاهاته المجهولة، فقد ثقلت بما عليها .. وتلوثت .. وأوشكت على الإنهيار .. "

ويتأكد لدينا ذلك من خلال حضور معاجم اللغة التشبيه والاستعارة كلفات ذاتية تتيح التوغل (والإغفال) في الذات وإختراق عوالم الباطن، ويتحقق ذلك من خلال الصوغ الذاتي للغة Le subjectivation وهي تسترشد من شحنة الذاتية، وهذا ما تتميز به بعض المقاطع في الرواية تجعلها قريبة من لغة التأملات والحواطر والإيماء الشعري مثل:

"وترفع رأسك.. لترسل بصرك إلى قمم الأشجار .. وإلى هالة الشمس المتسلسلة أشعتها من خلال الأغصان الكثيفة وكأنها تراقبك أيها القادم الغريب "الرواية ص 54.

- " .. وسترى الشمس، بعد هذا، تخفي في عمق مظلم.. كالخزن .. كالتأزم النفسي الذي يشمل روحك.. "الرواية ص 96.

- " .. وتعب قليل يتعمق في روحي .. وفي نفسي .. كما تتعمق الأحداث الماضية في الإدراك الباطني لدى الإنسان.. "الرواية ص 22

- " .. وكنت في طفولتك تتأمل زبد الأمواج القادمة .. فيخيل إليك أنها قطع من الثلج تطفو على سطح اليم.. متجمدة .. كتجمد عواطفك .. وباردة كبرودة مشاعرك " ص 91.

- " ... والأعماق في النفس البشرية.. تجدها دائما مليئة بالأصوات المختلفة، المعبرة عن كل ما ينتج داخلها.. تجاه الواقع بصراعاته.. وتجاه الموت بغموضه وتجاه الغيب بمفاجأته.. "الرواية ص 20.

نجد أنفسنا من خلال هذه المقاطع إزاء لغة تحمل هواجس الذات وتزاح نحو بنية لغة الشعر من خلال اقتصاد لفظي يضمن للخطاب الروائي شروط ودافعية الانتقال نحو لغة تجعل من الحلم والاستيهام مرجعية أساسية في استبطان أغوار الذات السحيقة.. إنه من شأن المقومات أن تكشف لنا عن حضور صوت المؤلف كملفوظ لغوي وأدبي يحفظ باستقلاليته داخل الخطاب الروائي.

و يمكن أن تثار على ضوء هذه الاستقلالية إشكالية العلاقات النصية التلفظية التي تتأسس على ثنائيات: المؤلف السارد، المؤلف/الشخصية، السارد/الشخصية وذلك من حيث كونها لا تعرف استقرارا ثابتا وتغطي داخل نص

"فيضان الطلوج" في ظل تنوع ملفوظه الروائي بين أصوات ولغات مختلفة إلى الحد الذي تتساءل فيه "من المتكلم داخل النص (الملفوظ) ؟"

فلنلتفت في النص أحيانا هو السارد العليم وكأنه راوي الرواة، أحيانا يتلبس صوت البطل الشخصية وكأنه على دراية كاملة بالأحداث تسمح له بالتحكم فيها. فيأتي صوته أحيانا منصهرا مع صوت السارد الشيء الذي يعطي لحضور الزمن الماضي الغالب على الأفعال الحكائية الموطقة تبريره النصي. وهكذا تخضر عبر هذا المكون لغة الذات المتكلمة تأتي لإدراج ملفوظاتها التثمينية هادفة إلى تحفيز ذهن القارئ واجتذابه لعواملها الروائية وفضاءاتها التخيلية ولو عبر خطاب مونولوجي داخلي مباشر، يطلق فيه المتكلم العنان لخياله وإحساساته كي تتداعى.

### تقنيات السرد و الوصف في المتن الروائي :

عمد -عامر بشة- في نسج أحداث متن الرواية إلى طريقتين: طريقة السرد الكلاسيكي التي تأتي على لسان الراوي المتحكم في تحريك مسارات الشخصيات

وتوجيهها (الراوي يعرف أكثر من الشخصيات) وهي تقنية لم ينتج إليها السارد إلا في حالات نادرة. وطريقة السرد الحديثة التي يتخفى فيها الراوي و يترك الشخصيات تتحرك وفق حريتها ، فترسم مساراتها وتبوح عن مواقفها، أو تبكر حوارات مع غيرها، إلى أن تصل إلى نهايتها الموضوعية تبعا لحمولتها الفكرية والنفسية والأديولوجية (الراوي لا يعرف الأعماق الداخلية للشخصيات). وينطبق هذا التوجه في السرد على أكثر شخصيات هذه الرواية، وبخاصة شخصية حياة التي ظهرت كشخصية حرة تلقائية، تعبر عما يعتل في وجدانها دون "رقابة" من الراوي أو المؤلف، وقد ظهرت براعة القاص في هذا التقنية واضحة، فبدت شخصية بطل الرواية بعيدة عن كل وصاية، في مثل نوازعها الفردية وطموحاتها الشخصية وعلاقتها بالآخرين، أو كما يقول جورج لوكاتش (الفنان هو الذي يدع أوضاعا ووسائل تعبير يمكن بواسطتها أن يظهر حيا كيف تشق هذه النوازع الفردية أطر العالم الفردي المحض.. وهنا يكمن سرّ نفوذ الشخصية الفردية إلى مستوى النموذجي)(1). ويلاحظ أن السرد يحتل مساحة كبيرة من نسج الرواية على حساب الوصف، نظرا لما تتميز به الرواية من سمة استرجاعية، وتكثيف للأحداث، فيتلاحق السرد في جمل فعلية لا تكاد تترك للوصف أو الحوار حيزا وتعمل هذه التقنية على تأكيد المواقف والرؤى ومحاولة تبريرها فيها. ومن هذه الرؤية السردية لا يكاد يلتجئ عامر بشة إلى تقنية الحوار إلا في مواقف محدودة، حين يتأزم السرد لتقريب وجهات نظر الشخصيات

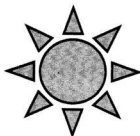
وعلافاقم المتصارعة.. كما يستعين السارد بالحوار أيضا في بعض الحالات لإظهار التباين الثقافي والفكري والأدبولوجي، واختلاف وجهات النظر المتناقضة أو المتباينة.

أما الوصف، فلا مناص من أهميته في أي نص سردي، إذ يظل تقنية ضرورية لتحسيد المواقف، وتقريب ملامح الشخصيات وتحليل نفسياتها وتشيء الدلالات، في علاقة تواصلية بين الأشياء والطبيعة والنفس البشرية. ويبدو أن عامر بشة في هذه الرواية، حاول أن يوفق بين السرد والوصف، فيضفي أوصافا على كائنات للطبيعة (بعد قليل.. ستتحرف الشمس بالتدرج لتغوص في الأفق، وستحول نورها في الأصل إلى صورة شبيهة بحريق هائل.. ص 96).

وسرعان ما تسحب إلى كائنات بشرية، وقد تأتي هذه الأوصاف في شكل تشبيهات واستعارات، تجسد عملية السرد، وتخدم مواقف السارد وتبرز الرؤيا التي يريد أن يثبتها أو ييشها في أفق انتظار المتلقي.

ومهما يكن، فإن الوصف في رواية - فيضان الثلوج - لا يتخذ مقاطع منفصلة بل يتداخل مع السرد، فالسارد وهو يصف، نراه فجأة يستنجد بالسرد لتطوير الحدث وما يكاد ينتهي من الصورة حتى يزواج بين السرد والوصف أو يهرع إلى الحوار والمفاجأة وتكاد تنطبق المقولة الشهيرة للناقد الفرنسي نيكولا بوالو Nicolas Boileau (إننا نطلب إذا سرخنا ونوجز إذا وصفنا) على تقنيات السرد في رواية - فيضان الثلوج - ...

وعلى ما تميّزت به هذه الرواية من تقنيات حديثة وأصاليب فنية راقية في تشكيل المتن السردي مما يلحق صاحبها بقائمة نخبة الأقلام، من كتاب الرواية التونسية المعاصرة - تبقى أقرب إلى السيرة الذاتية، والإسترجاع التاريخي، منها إلى الرواية الفنية التي تجسد البعد الإنساني في مقوماته الحضارية والنفسية والإجتماعية، وترسم آلام البشر وآمالهم المشتركة في خضم الواقع وأطراف الصراع ومهما يكن من أمر هذا العمل، فإن الكاتب قد توّسل في الخطاب السردي بتقنيات خلقت تقاليد قصصية وأعادة تمتاز بتكثيف الدال واللحوء إلى التكرار وتمشيم الزمن وتقطيع السرد و الإنكاء على معجم حسي يطمح إلى احتواء غليان الدائل وتأججه..



## منطقة التالجة

بقلم: محمد العائش القوي

منطقة التالجة معلم طبيعي يعرف بمجال التالجة الشاهقة الجميلة بمدينة المتلوي ولاية قفصة مناخم الفسفاط بالجنوب الغربي للبلاد التونسية (بين النسيج الأسطوري والواقعي) وهي سلسلة جبال تمتد من مرتفعات مدينة تيسة الجزائرية الحدودية للبلاد التونسية بصفة عامة وولاية قفصة بصفة خاصة وهضاب الشبيكة الجريد ولاية توزر الصحراء التونسية المجاورة لشط الغرسة الممتد والواصل حتى الحدود التونسية والجزائرية حيث نجد منطقة التالجة الجميلة الخاملة، ويرجع تاريخ التالجة إلى العصر الإيوسوني حيث يتكون من كهوف ومغاور مرتفعة تصل إلى 300 متر بها طبقات أفقية للتعرية الجيولوجية غير أحقاب تاريخية طويلة وكل طبقة تؤرخ لفترة زمنية معينة تزيد عن ملايين السنوات التاريخية وتبدو هذه المشاهد كأنها بنايات شاهقة شيدتها أيادي بنائين بارين.

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

وظل مكان التالجة مجهولا لمدة تاريخية طويلة ماضية ولم يذكره المؤرخون بأي وصف من الأوصاف لكن نجد بعض الإشارات المقتضبة تشير إلى أن الرومان قد استوطنوا التالجة فبنوا فيه سدا صغيرا لحصر المياه المتسربة عبر الأودية عند نزول المطر قصد استعمالها لري أشجار الزيتون وكروم التين والنخيل والرومان التي غرسوها في حوض وادي التالجة وكذلك فسحة أرض بوخزر غرب منطقة التالجة ويمكن لنا أن نعود للفترة التاريخية للقرن الأول قبل الميلاد وما قبله بقليل على إثر انتصار القائد الروماني (ماريوس) على القائد النوميدي (يوغرطة) الذي أقلق وأتعب روما لسنوات طويلة ولم تنصرف عليه إلا بوشايات نسقها ونسجها صهره حاكم إحدى الدويلات بأرض وبلاد موريطانيا.

ولقد تحدث المؤرخ الروماني (صالوست) عند تطرقه إلى معارك روما ويوغرطة واصفا مناخ مدينة قفصة ومكانها فإنه لم يذكر منطقة التالجة بمدينة المتلوي لأن جيش (ماريوس) لم يصلها كما أن المؤرخ الفرنسي الأستاذ شارل اندري جوليان في كتابه "تاريخ شمال إفريقيا" قد ذكر عدة بقاع بمناطق قفصة

الرديف وأم العرائس ولم يذكر منطقة التالجة وأما أول ذكر لها فيما كتبه الأجنب فيظهر في كتاب "قصص القديمة... قصص الحديثة" لصاحبه جون بورديو الصادر في بداية القرن العشرين وكذلك كتاب وصف جيولوجي لتونس لصاحبه فيليب توماس الصادر سنة 1910م ، تحدث فيه عن الأماكن التي شملتها أبحاثه عندما حل بتونس.

ولقد وردت عدة فقرات تتطرق في هذا الكتاب المذكور بأجزائه الثلاثة إلى منطقة التالجة من خلال ثلاث فترات تاريخية:

### 1-الفترة التاريخية الرومانية:

أشار المهندس الجيولوجي الفرنسي المكتشف لمادة الفسفاط بجبال التالجة يوم الخميس 18 أبريل 1885م) إلى أن الرومان قد استوطنوا هذه البلاد الجبال والشعاب وتعاطوا فيها أنشطة فلاحية مازالت آثارها تدل عليهم.

### 2-الفترة الهلالية :

روى فيليب توماس قصة أبي زيد الهلالي الذي ضرب بسيفه إحدى جبل من جبال التالجة ووادها ليضع كرسيا تستريح عليه للجازية الهلالية (المخياة في شعورها من تعب السفرات أثناء العبور إلى القطر الجزائري الشقيق

### 3-فترة اكتشاف الفسفاط بالتالجة:

تطرق فيليب توماس بإسهاب وفي العديد من صفحات كتابه وصف جيولوجي لتونس إلى منطقة التالجة مصورا تكويناتها الطبيعية والجيولوجية والمناخية بأوصاف لا تترك مجالا لنسيانها من طرف راغب في معرفتها فأعطى معلومات عن العصور التي مرت بها وعن أنواع الأثرية والأحجار المنصهرة فيه وعن تشكيلات بعض مرتفعاتها والتواءات واديها الذي يمتد من الشرق الجزائري ليصل إلى شط الغرسة على طول مائة كلمتر قبل أن يغادر منفذ ومخرج جبل زرف هذا زيادة عن قصص استوحاها من ظروف تواجده وإقامته بهذا المكان التالجة أو بالقرب منه قبل أن يكتشف الفسفاط يوم الخميس 18 أبريل 1885م على الساعة الخامسة مساء بعد قدومه من منطقة الدوارة الفلاحية لأولاد سلامة بأم العرائس وتوالت وتعددت المقالات والدراسات والمؤلفات والكتب التي تعرضت بالحديث أو بالوصف إلى منطقة التالجة السياحية التي أصبحت اليوم مزارا ومعلما سياحيا يذهبون إليه كل يوم السواح على متن القطار السياحي الحردون الأحمر .

## عطر الغياب

(1)

### قصة: نعيمة الوسلاحي

كان "فادي" يعمل لحساب قناة تلفزيونية خاصة... كان عضوا منتديا... مكلفا بتحقيق تلفزي لفائدة هذه القناة الرائدة في الأيام الأولى لاستيلاء القوات الأمريكية على مراكز القيادة في العراق المشتهكة.

أحداث متلاسة، متضاربة... غامضة... وشعب يتلظى تحت نار الفتنة والاعتداء والتزاع... وحاكم مخلوع ينتظر صدور الحكم بالإعدام...

كلفته القناة لشجاعته وحماسه وذكائه الملقد بتغطية الأحداث هناك، وإعداد تقرير صوتي وصورة عن الواقع المعيش في بلاد ما بين النهرين... مهد الحضارات العريقة البابلية والاشورية... أرض العروبة والهند الغابرة، بغداد والكوفة والبصرة والقادسية... وكربلاء التي بهدت مقتل الطاهرين "الحسين والحسين".

سافر فادي مع رفاقه من الإعلاميين الأحرار المخلصين إلى هذه الأرض التي لا تزال موطئا لأقدام الغزاة وموطئا للحروب الأهلية والاعتداءات، والخسائر البشرية ومرحلا لعمليات التعذيب والتصفية والإبادة... ومرثعا للمنظّمات الاستخبارية في أنشطة التحسس وجمع المعلومات الاستخبارية... والتي أصبحت اليوم مُحرّد صورة للدمار، ووطئا أعزل يُعاني ونبلات الغزو الأمريكي المدبّر بدعوى حمايته من الطاغية... وقد كان من أكرم منافسيه في التسلّح والتصنيع والتجهيزات الحربية والصناعات البتروكيميائية... ألم يحدث الشيء نفسه في عدة بلدان عربية، وخاصة في مصر حين دخلها "نابليون" غازيا بحجة إنقاذ المصريين من ظلم "المماليك"... لقد وصل به دهاؤه السياسي إلى حدّ إعلانه إسلامه واحتفاله معهم بعيد "المولد النبوي الشريف"... والتاريخ شاهد على ذلك.

سافر الفتيان بشهامة الفرسان... بسواعد النضال، يهتفون بروح الفداء للأزقة البيضاء... للذروب المُفجرة... للذور المغلقة على صحتها... للوجوه السمر الواجحة... لذاكرة العجائز... للوطن السليب... للأرواح المذبذبة من "جنين" إلى "الفلوجة"... للدماء الزكية الطاهرة في "الموصل" و"البصرة" و"الناصرية"... في "بغداد"... وفي "جنوب" لبنان...

تجمهر الأهل والأصدقاء في المطار لتوديعهم ولحجت ألسنتهم بالدماء والانتهاك... لكن رذائل متنافسة استيقظت داخلهم... وسعادة مُبهمة سرت كالثور في صدورهم لا تفارقها...

لقد توحدوا شوقا وإيمانا وصبرا، يُغنون خلف ضباب الدّمع على وقع كلمات "نزار"  
المشحونة حبّا ولوعة وانتماء... وقد اكتسى الموت فجأة صبغته الأرقى والأجمل...

"يا وطني"

يا لابساً عباءة الحسين

وشمس كربلاء

يا شجر الورد الذي يحترف الفداء

يا ثورة الأرض التقت بثورة السّماء

يا جسداً يطلع من ثرابه

قمح وأنبياء..."

سافر "فادي" في حين كان يستعدّ للزّواج بفتاة أحلامه التي أبى أن تحبّ من طموحه ودفعته في شجاعة نادرة إلى الانجذاب لنداء قلبه الذي ظلّ كحصان سبق يعدو حلف الحقيقة في تحدّ، كاسراً كلّ الحواجز، هاتفاً مع "أبي القاسم الشابي"، بعزم الشباب وعُفوانته وإقدامه :

"ألا انمض وسرّفي سبيل الحياة... فمن نام لم تنتظره الحياة..."

إلى التّور، فاتّسور غلاب جميل... إلى التّور، فاتّسور ظلّ الإله..."

غامر فادي وحازفاً بحياته ملأً أحلى تحقيقات أحلامه وعفّره سبعة وعشرون سنة... كثير من الزّهو وما يُعادلّه من الأحلام المبعثرة والمشاريع المؤجّلة... مليهاً بنشوة الحماس... ومزهوّاً برحلة العمر إلى أكثر الأمم العربيّة عراقية وحركيّة... وعموضاً، وماذا يكون الإعلاميّ، غير ذلك الضّمير النقيّ الذي لا يُباع ولا يشتري... وتلك العزيمة الصّادقة في إيصال الخير اليقين والصّورة الحيّة النابضة... وذلك الذهن المتقدّ اللاّقط للكلمة الهادفة التي تحيي النيران الخامدة وتوقظ الضمائر النائمة...!

وما أيقظ الضمائر، وأوقد النيران غير ذلك التيف العربيّ، والنخوة الاستثنائية التي حدّثت بالصحافي العراقي لرمي الرئيس الأمريكيّ "بوش" بفردة حذائه أثناء ندوته الصحفية...، صارخاً "هذه قبلة وداع يا..." لم يفكّر هذا الصحافي في الانفراد بسبق صحفي أو بالفوز بصفقة ما...، وإلّا ما كان يُريد أن يرُدّ لشعبه كرامته المهذورة... وأن يجيب جلاذيه في الوقت ذاته بنفس الوحشيّة والسّادية التي تعاملوا بها مع العراقيين الأحرار حين داموا بيوتهم ودّثروا منشأهم وزجّوا بهم في المعتقلات...

كان ردّ هذا الصحافي، حدثاً تاريخياً فاصلاً... لم يُكلّفه ترسانة حربيّة أو قنبلة نوويّة... لأنّ الدّفاع عن النفس لا يحتاج أحياناً إلى أكثر من إرادة صادقة وموقف حاسم... فلو

آثر الصَّدَام سلامة شعبه وكرامته على مصالحة الشخصية لكفى نفسه وإياه شرَّ الحرب والدمار...

قال مارتن لوتركينج ذات يوم أنّ "لا أحد يستطيع ركوب ظهره إلا إذا كان منحياً"... لكن ذلك القائد لم يكن منحني الظهر فقط حين استغرد به العدو وعبث بوجاهته ونال من كبرياء أحلامه واعتداده الكاذب بنفسه... لقد وقع عن جواد العروبة الجامع أرضاً.. حين سلّم شعبه اليّتم والعراء... وحين تحلّى عن عهده وحنان الأمانة... تحلّت عنه الحياة نفسها... وهذا هو قصاصها العادل!...

لم تتحلّ "ندى" عن عطيها "فادي" ولم تُننِ عزمه لكتها ودعته بدموع حارة وقلب وجل وهواجس عيفة تكاد تعصف بفؤاد زاهر بمشاعر الحب والغرام... هذا الفؤاد الذي رقصت أنباضه على وقع حلو كلماته ودفع نظراته في تلك الرُبوع الوادعة والغابات الياضعة والخيال العابقة بشذى الإكسيل والزعر والخزامى...

عرفت الحب في أوّل أطوار الصبا وترننت بأناشيد أخوى وتأوّدت فرحى بأغاريد المنى... فهفت للحياة كما تهفو تبحان الزهور وأمواج العطور وأشراب الطيور...

بدا لزهرة الشوق التدبّية أنّ الحياة أصبحت لها بعد أن تفرّجت من كلّية الآداب وتخصّلت على الامتدائية في اللغة العربية وتعمّدت أسيرة فادي خطيتها... وسعت في تداير الزواج السعيد... لكن قرار الاستقرار جاء فجأة ليضيق بعض القساطل والتواصل في مسار حياتها القادمة...

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

لم تكن تدري أنّ القدر توّلى مسبقاً انتقاء معروفة أوجاعها... وتكفّل بنفسه بتأثيث غرف عمرهما...! ما استطاعت ندى أن تلحم مخاوفها وتُداري هواجسها... فلا أحد يدري ما يمكن أن يحدث في تلك المسارح الدامية...

ها قد وضعتها الأقدار في رحابها التي لا ترحم في زمن الموت العيشي وقطع الرؤوس والميات المنيعة الشنيعة!...

أما يحقّ لها أن تُساورها المخاوف وتُربو بها الظنون وقد عمّ الخراب هناك ولم يبق من هذه الأئمة العربية إلا قبائل وعصابات وقطّاع طرق وقتلة مُطّربين، بعد تهجير علمائها وترحيل أسانئها وباحثيها واختيال رجال الإعلام فيها، وإحراق جثثهم وسلب مُعدّاتهم...؟ كيف لا وقد تعهّدت أجهزة داخل "الباتغون" برعاية مُحطّطات واسعة تستهدف علماء العراق والكفاءات العلمية العربية... بينما أمريكا من جهتها لا تفوّت الفرص السانحة لرصد ملايين التولارات، واستقطاب علماء برامج التسلّح العراقي الذين وجدوا أنفسهم فجأة عزّلاً أمام شبك "الموساد"... وغيرها من الأجهزة المزروعة هنا وهناك كالفام للقص والفنك.



مضى زمن طويل تمددت فيه جُنة الوقت وجوارها شيء شبيه بالموت... طال الغياب، وطال معه الانتظار، وانقطعت رسائل فادي وأخباره عن الأهل والأحباب... وبلغت الخيرة بالعائتين المتصارتين أوجها... يُراودهما الأمل أحياناً، وتشتدّ بهما الخيفة والظنون أحياناً أخرى، وتختلط عليهما السبل والرؤى والهواجس... كان الجميع يُتابع تطورات الأوضاع هناك، ويسقطون الأخبار التي تجرّدها بعض الصحف، وتتأقّلها وسائل الإعلام والقنوات العربية والأجنبية بمزيد من الاضطراب والشك والارتياح...

أما ندى، فقد لجأت إلى تلك الشقة الصغيرة التي انتقتها مع فادي وجهازها وإساره بأحدث أنواع الأثاث استعداداً للزواج السعيد.

استقرّت هناك حتى يشئى هذا الاتصال كلّ يوم بالهاتف والفصيلة، ومركز القناة...، تتعقّب آثاره، وتلقط ما يصل إليها من أخبار لا تكاد تتردّ كيدها، وتطفئ حرائق اللظى في صدرها...، ثم تعود أدراجها تجرّ أذيال الحيرة والانكسار، وتلمم أشلاء نفس مثقلة بأوجاع المموم... تجوب الشاي، مشغولة البال، منصرفة النفس... ظامئة الفؤاد وقد جمدت على شفيتها أنعام الأمل وغارت آمانيها وتوارت أحلامها الجميلة... تسير في شوارع مقفرة إلاّ من نظرات الفضوليين والمنجسين...، لاهتة... في منتهى الاتساع وبقدر هائل من الارتباك...، بأعراض عشق في طور الجمال وجه هوس الرقص والترحال في ثمرات ضيقة فتعثر حيث حلّ بشرية الرغبة وجنون الاشتها...

وحين يُداهمها المساء الحزين ويكتنفها الضباب الساجي الكئيب، تعود إلى تلك الشقة وصدرها يهتزّ ألماً وفؤادها يتخلج كآبة...

تجضي بعض ليلها جالسة إلى التلفاز أو إلى الحاسوب تنقل من قناة إلى أخرى، أو تُبحر من موقع إلى آخر بلهفة كبيرة وشوق أكبر إلى التقاط خبر صحيح يطمئنها ويُريحها من عذاب الصمت والانتظار... لكنها تُنكر ما تلمسه من غموض، وتضيّق أشدّ الضيق لما تشعر به من تعيم في نشرات الأخبار وطمس للواقع الزاهي في بلاد ما بين التهرين، فيغشاها القلق والإشفاق وتشتأر بها الشكوك وتغيرها المخاوف...

تمضي الأيام ثقيلة الوطء، لا تكاد تثبت ولا تكاد تنتهي وإذا الأمر يشتدّ بها والرغبة الجارفة في قصّي الأخبار، واستحلاء الحقائق تلحّ عليها، فتملك قلبها ونفسها وعينيها...، فإذا هي الحياة المضطربة والفكر المشرّد والقلب الذي لا يهدأ ولا يستقرّ، يُراوده اليأس تارة فترى نذيره منكراً بشما ومشمعه صارخاً، ملحاً يثير فيها شعوراً قوياً، غريباً، فيه الحزن والشحن، ويتسلّل إليه الأمل تارة أخرى فيفتح لها ذراعين فيهما العزاء والراحة والسليّة....

تكتب ندى فلا تدري إلى أين تدفعها هذه النفس المضطربة التي لا تهدأ وهذه العواطف الثائرة التي لا تستقر، وهذا القلب الهائم الذي لا يعرف أين المصير...!

لكنها تجد في غمرة هذه الأحواء الضبابية القائمة شيئا من الترفق بها والعطف عليها في صديقة الطفولة "رؤى" وفي من حولها من الأهل والأصدقاء والصديقات المحصلات اللاتي يفضن معها في الحديث والمرح والدعابة الحلوة ويترسلن حولها في الكلام الشائق اللذيذ...

وما أشد ميل الفتيات إلى الهزل والتفكك والتسرية عن النفس بسرد الطُرف والنوادر وتُنف الحديث... يتمادين في الأحلام ويمضين مع الخيال ويستيقن الأحداث في لذة وابتهاج ويقضين الساعات الطوال في شيء من التألف والتأنس وكأن الحياة لا تتجاوز حدود عالمهن البسيط.. يترددن على بيت "ندى" في هذه الأوقات العصية، فيُثخن في نفسها المستوحشة بعض الأمل المبهج.

كانت "رؤى" أحب صديقاتها إليها وأقربهن إلى قلبها، تعودها في أيام محنتها، تونس وحلقا وتخفف عنها بعض ما تجد بكلامها العذب الجميل، فيسري الأمل شعاعا جميلا في حنايا صدرها كما يسري ضوء الصباح في خلالي الفضاء الواسع.

رؤى فتاة مسؤولة، يقظة الذهن، نشيطة تساهم في عمل خيرى تطوعى ضمن جمعية "الرعاية الجوارية" التي تُعنى بالمسنين والمُعززين الذين هم في حاجة إلى المازرة الإنسانية والمؤانسة والصحة النفسية أكثر من حاجتهم إلى الإعالة والدعم المادي...

هذا إلى جانب عملها في مؤسسة الخيرية الخاصة بالاتصالات الهاتفية... لذلك كانت تشتغل أحيانا أيام الراحة الأسبوعية والأعياد الوطنية لتتمكن من الاتفاق على عائلتها المعوزة المقيمة "بعين دراهم"، ومواجهة مصاريف الكراء والتنقل ومستلزمات الحياة اليومية... وما كان لديها الوقت الكافي أو الرغبة الملحة في التفكير في الارتباط أو حتى في البحث عن قريب.

فتمرّ السنوات سريعا ويركض العمر بها وبأمانها من الشباب القابع على رؤوة الزمن النازف ومها...، بأمال مبتورة وآفاق ضبابية قائمة نتيجة انعدام النظرة الاستشرافية للوطن والتعطيل السياسي لمآلات وغياص مقومات التنمية الشاملة والتكيف مع المستحدثات... ورغم هذا كله، يظل الشباب، ذهنا متقدما ومنحما هائلا للإلهام والخيال، تصهره المعاناة ويجذبه الأمل، لا يعوزه العزم ولا يخطوه الثبات.

تمتد جسور التواصل بين الصديقتين الحميتين وتجد ندى عند هذه الرفيقة الطموحة، المكابرة، البارة بعض العزاء والسكوى... بها تستعين على احتمال الخطب الذي أصابها وتصبر على الأذى الذي نالها... فتسكن نفسها المطمئنة إلى رُوح الله وذكره. فتحفظ العهد وتستيق المودة، وتُسح لله راضية مرضية تردد قوله الكريم :

"وَأَنْ يُمْسِكَ اللَّهُ يَصْرًا فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرَدِّكَ اللَّهُ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ".

فيجري قول الله في ضميرها التفتي ونفسها المرهفة الزائخة بالحُب والخير والجمال، كما يجري الماء في الفصن الرطب فيزيده نضرة وملؤه حياة.

يتردد الابتسام على شفتيها، ويترقق الإشراق في وجهها حين تذكر كيف كان فادي يُواعدُها في ظلال الغاب "بعين دراهم" مسقط رأسها ومرتع أحلامها... فهبَّ إليه طائفة بأقدام مجتحة، تستمطر الإلهام من طيفه الخلو الجميل كزهرة ربانة من رضاب التدي في الفجر البديع، عثت لها الدنيا فتأودت نشوى بأحلام الربيع... توفرف حولها أفراح العُمر وتنمو بصدرها فائنات الورود، ومثلًا فوادها نشوة بأحلام عذاب أزهى من الرّوض الجميل وروّثق المرحج المنير.

يلتقيان بين الخمائيل والغصون، تنفيض ألحان الصباية عذبة مثل الأمل، وتمايل الحلم الجميل كسمة القلب النمل...

يتعانقان فتوقظ أنفاسه في صدرها نبض الحياة الزائخة وتحرك نظراته أوتار نفسها الماحدة، فيجيش فوادها بأنغام سكرى طروب.

تقول بين يديه كلمات أرق من الورق النضير وأصفى من الوادي المنير. وتعمس إليه في دلال مثير:

- أنت جدول فحّرت ينبوعه في مهجتي تغاريد البلابل وقد انطلقت تعانق الأنسام وطيب الأنداء في الصبح الجميل وتطير بالسمات والأنغام أجنحة المسوى مرفرفة حيث نسير...

يضمها إليه ويقول: "أنت دنيا من السحر والخيال السعيد يزغ في فؤادي شموسا وضاء ونجومًا برأقة وفجرا جديدا، فليبك القمر حين يلوح سناك وتلذو بانعات الورود لما يتضوّع شذاك...!

تضحك فتشدد لحنا رخيما يُطرب القلب رثيمه وتعانبه في صوت كرجع الناي في ليلة قمرء حين ينتشر ضياء الحجوم وسحر المساء وتقول تناجي النسيم، تناجي الحقول:

- "هل ترى تبقى المنى ويبقى الربيع ولتدّ فتحة هذا الوجود البديع...؟... أخاف الضباب... أخاف الظلام أخاف السكون وظلال الشجون...!

فيرة مبتسما: "يا ملاكسي الجميل، أنت تميددين في قلبي كربيع شذي، يوحج فيه حياة المسوى ويفض الحنين ويوحج أيامي سحر المنى وعصب العمر ويضخّ أخواقني بعطر النمر وروح الزهر".

ثم يضيف : "نحن نضيء النجوم، نحوم الضياء، نحوم الأمل ونحيي الربيع، ربيع الحياة، ربيع الصبا وغيض الزهر".

تضحك فتغتر مرافقها عن لآلي مُصَفَّنة فوترعش وبهيم بها كما تقيم الفراشات بغاتات الورود لاعقنة رحيقا أشهى من العسل وأذكى من الشهيد... فتحنى ندى برأسها الجميل حياء وعفرا ويتورد وجهها الصبوح وتشتع عنابها الدعخوان الواسعان بأنوار السعادة والخبور... وتفيض شفتاها الرَفِيعَتان بأحلى السمات وأجمل النغمات.

فكما تجذب الزهرة الرائي بعروق أريجها ونظرها وفنة ألوانها، تجذب ندى كل من حوفا بنقاء سرورها وحلاوة روحها وكرم نفسها الرافضة المظنقة الذي تجلس على صفحة وجهها المستنير فأضفى عليها سحرا وفنة تأسر النفوس وتأخذ بمجامع القلوب...

تذكر ندى كل تلك اللحظات الجميلة والأنغام السعيدة فستلهم منها زادها من الدفء لئلا يولي الوحشة والغربة والصقيع...

واليوم، بعد أن قطعت بينهما الأسيار حصار الوصال وسبل الاتصال... لم يبق أمامها سوى شرفة للذكرى ومساحة شاسعة للترقب والانتظار... وما أوجع الذكريات التي لا يزيد بها شغف التذكر وحتى لا تضل إلى المحيرة وأسى... فتبكي ندى أحيانا بأفكارها وتنفرد بالأمها وتنطوي على أسرارها، وفي الوحشة حياة الروح والتفكير والقلب حيث القوة الصامتة، والسلام الدائم وسكنة الإيمان ومرساة الذات الثاقبة إلى الروح الأعشى...

فالسذات المستوحدة تستنير بسراج نفسها وتعمر بمكنوناتها وتسعد بأنغامها السرية... تصوغ في لحظات صفائها ما يحول في داخلها، وتكبح عبقاقها، وتنصر ما طوته في أعماقها... وذلك هو الحد الفاصل بينها وبين الآخرين... لأن كل نفس بشرية تنفرد بعالمها الداخلي الخبير... هزائمها وانتصاراتها... برغباتها السرية ونشرتها الماثية التي تتجلى أحيانا وتتوارى أحيانا أخرى!...

تشتاق ندى إلى توأم روحها... فنهال سيال خفي يتموج بين روحيهما، ليصبح صولهما الواحد وقلبهما الواحد... تحدثت نفسها المختلجة اغصان الطامس اقيان :

ماذا تراه يفعل في لياليه الطويلة... في غناض المسراة والخبية وأحلام العودة... هو المسكون بالوطن وبرغبته الجارفة في تعرية الحقائق وكشف أسرار سادة الإرهاب وأعداء العروبة... وردة دين أبطال شجعان وفدائيين أحرار... ونصرة حضارة عريقة لا شبهة فيها ولا لبس عليها غير فساد أنظمتها وفجور حكماها الذين يزايدون على أمن الشعوب ويستخفون بحراقتهم واشتغالهم ويسلمونهم فريسة سائفة إلى جحان القرش وقطاع طرق التاريخ!...

كان فادي يعلم أنّ الصّمت عن تلك الجرائم جريمة في حدّ ذاتها، والتضليل الإعلامي وترويع الأكاذيب مسلك انتهجته قوى الاحتلال لتغطية جرائمها المنظّمة والوحشية في كثير من بلدان العالم.

تنفق ملايين الدولارات لمراقبة التغطية الإخبارية لعدد من المخطّطات الإعلامية وخداع العالم وشراء الضمائر..

ركض فادي خلف الحقيقة لأنّه يدرك أنّ العنف كما قال "لا ترادل فاستو" : ليس النّظيم ولا الرّكل ولا حتّى الرّشاش... العنف هو كلّ ما يشوّش النظام المتناغم للأشياء ابتداء من اغتصاب الحقيقة واغتصاب العدالة واغتصاب ثقة الآخر..

رحل فادي وترك خطيبته لوحدها... لمواسم الشتاء... للأيام الرّمادية الفاتكة والسهرات الموحشة...

أخذ معه لحظات الفرح وتركها متصفاً من العمر للعذاب والغياب والفراغ.. لتحلّ بها عذابات السنين وتتدرّج عن منحدرات المدام ومعاور الألم وأنفاق اليّتم والفجعة... مذ غادرها أضاغت بوحشتها... ما عاد أمامها في هذا الزّمن المتناسل وجعا سوى زورق اللّوهم يُبحر هنا إلى مدن الغربة والسيان... قد كتب إليها من هناك ليُعطيها إشعاراً بالحياة... ليُخرجها من المطبات الخنويّة التي ضاعت في متاهاتها... ولكنّها أيقظت أنّ تكون رسائله قد ضاعت... قد ضلّت طريقها إليه، هي التي ما عرفت قلبها طريقاً إلى غيره...؟

تحنّ إليه يبدرا من نجوم صيفيّة... لحنا غريباً مرّعتنا كحنانيّ عصفور، يناديها، يأخذها إلى جزر وردية... تحنّ إلى نظراته تظّرها حناناً واطمئناناً... تحنّ إلى لمساته تداعبان أنوثتها... تغمرها بخدر لذيذ... تحنّ إلى كلماته الجميلة، وتنتظرها بمعشرة أمام شعور مقيت بالخذلان... بالصّمت والغياب. تعابت عيوط الذاكرة، تنازل غيوم نفسها المنهطلة... لا تملك إلاّ أن تعاطف مع ماضيات أمل ضعيف ورمم أحلام ضائعة، ترادوها بين الفينة والأخرى ثمّ يتعمد رويداً رويداً، لتركها غارقة في عمّة الخواصّ هائمة في معتقل للكاتب الجميلة....



## الحقيقة الكاذبة

### قصّة: أحلام القطيبي

أيّ حديث منطقي .. سوف يقبل للخروج من هذه المحنة .. ألمى الرجل حديثه فلمح على مسافة غير بعيدة منه .. إحدى الفتيات من فرقة "العائدات الكشفية" تغازل أحد الشبان فتخلّي عن حلقة الكشافين ودنا من الفتاة وخاطبها قائلاً : هل تتكرمين علينا وتعودين إلى فرقك قبل أن تنتهي أنت أيضاً ؟ ضحكت الفتاة ساخرة وقالت في غنج : أستاذي العزيز أنت من أتى بنا إلى هذا الغاب الموحش وأنت من تسبب بضياعنا لذلك عندما نجد حلاً ما قم بدعوتي لحضور إجتماعك السخيف .. حذج الرجل الفتاة بنضرة تأنيب ثم نظر إلى الفتى وقال أمراً إياه : وأنت ماذا تفعل يا ولد ...؟ هيا عد إلى مجموعتك.

في تلك اللحظة قدعت إحدى المرشدات وخاطبت الأستاذ قائلة : لقد حاولن الاتصال بالإدارة المشرفة على المخيم لكن محاولتنا باءت بالفشل ففي هذا المكان التالي لا يستطيع أحد أن يجدنا أو الوصول إلينا. قالت الفتاة مقاطعة حديث المرشدة في برود : إذن لقد تمنا حقاً ؟؟ قال الأستاذ مخاطباً المرشدة : وماذا عن شيما ؟ هل وجد فريق التفتيش أثراً لها ؟ أو ماتت المرشدة برأسها في انكسار وظلت صامتة. فمشى الرجل خطوات وقال: نحن نضيع الوقت بالبقاء هنا دون أن نحرك ساكناً لذلك فسوف نرحل من هذا المكان ولن نتوقف قبل أن نجد مكاناً آمناً فإن الأطفال مسؤولية كبرى بين أيدينا. قالت الفتاة مقاطعة وهل تنوي العودة بدون شيما ؟ التفت الرجل ونظر إلى الفتاة قائلاً : سوف نعود بالأطفال إلى أهاليهم أولاً وهذا قرار نهائي. قالت الفتاة في حنق: لن أعود بدون شيما ولن أسير تحت إمرة رجل يجهل حتى طريق العودة! قال الرجل في حدة وقد دق من مريم: سوف نجد المسلك الصحيح فلا تخافي آنستي وكوني واثقة أن خريطة الغاب التي بحوزتي سوف تساعدنا في الخروج من هذه الأحرار.. قالت الفتاة مستهزئة: جد مسلكاً لنفسك وعد إلى حضن أمك قبل أن يحل الليل أما أنا والصغار سوف لن نعود قبل العثور على الصغيرة.

قال الرجل في برود: أنت فتاة ناضجة ومتهورة بما يكفي.. لذلك أمتحك حق الاختيار بأن تقرري فأما أن تسيري خلفي و تطيعي أوامري وأما أن تبقي هنا لتلهمك الذئاب والخنائز فعددها كثير في هذه المنطقة. وقبل أن تضيف الفتاة كلمة أخرى ترك الرجل المكان فتبعه المرشدة. نظرت مريم إليهما بنظرات يملؤها الضيق والاشمئزاز.

تلك الليلة بقيت مريم بين الأطفال وحاولت أن تجد سبيلاً لنوم ولكن صورة الرجل من المكان غداً أمراً أثار توترها ففعل النوم أمر مستحيل الحدوث فأسبلت جفניה على أمل أن تمام.. وفجأة سمعت ضوضاء ففتحت عينها وانتابها الخوف الشديد وهي تتأمل واجهة من المكان يحجم عليها الظلام.. ثم استرخت عندما

رأت على الناحية الأخرى نيران لم تنطفئ، وبعض الرجال ساهرون لحراسة المكان وما إن أغمضت جفניה حتى كتمت يد أنفاسها فهمت بالصراخ فرأت وجه صديقها الذي خاطبها قائلاً: تعالي معي ولا تحذني ضحكة هناك أمر هام أريد إطلاعك عليه.

تركت مريم مكانها.. ومشت بجانب رشاد الذي أردف: شيماء لم تنو يا مريم لقد اختطفت.. والفاعلون يدركون أنها ابنة أحد الأثرياء وكما تجري العادة لأسترجاع الأسيرة إلى أهلها يجب أن تدفع فدية.. قالت مريم متسائلة: ومن هم خاطفوها؟ من يجبر على الإقدام على هذه الفعلة المشينة؟ قال الفتى حسون يا مغفلة إلى جانب تلك المرأة التي تمثل على الجميع دور المرشدة إنما من قاما بأسر تلك المسكينة في مكان لا يعلمه إلا الله.. إنما يحفظان الآن إلى العودة بنا ليتسنى لهما التفرغ لمسألة الفتاة المسكينة.

قالت مريم في انفعال: إنما بمنونان.. هل يظنان أنهما سينجيان من فعلتهما بهذه السهولة؟ وأردفت بعد لحظات ولكن أخبرني كيف علمت بالأمر يا رشاد؟ ابتسم مخاطبها وقال: هذا المساء سمعتهما يتحدثان خلسة فاختبأت وسمعت ما رويته لك كما علمت أيضاً بمكان وجود الطفلة. إنما يفكران بتغير مكانها فما رأيك أن نذهب الآن وننقذ الطفلة من قبضتهما؟

أشرقت أسارير مريم فرحاً وقالت في حاس: ماذا نتظر؟ هيا بنا فلنسرع لنجدة الصغيرة قبل أن يتفطنوا لأختفائنا. مشيت مريم وقد سبقته بخطوات.. في حين ابتسم رشاد في مكر ممسكاً بجبال أخفاها بين ملابسه قائلاً: هيا بنا.

في الصباح استيقظ جميع من في الخيم على خير اختفاء مريم ففتشوا المكان وسألوا عنها فلم يجدوا جواباً شافياً. فقال حسون في غضب: "وهو يجوب المكان والجميع ينظر إليه" متهورة.. أجل تلك الفتاة متهورة أشعر بالندم لأنني قبلت طلبها بالانضمام إلينا.. وأردف ونبرة صوته تتصاعد في حلق.. لقد نفذت ما يدور برأسها وذهبت إلى الخنازير والذئاب لتخبرهم بأنها هنا وبأن وجبة شهية وساتفة. أرادت المرشدة أن تقول شيئاً لكن حسون أضاف: الآن لم تعد نبحث عن واحدة بل عن اثنتين ماذا سنخبر أهلها؟ كيف سنشرح لهما الأمر؟

فتحت مريم عينيها.. وكأنها تستيقظ من رحلة نوم طويلة فانتبهت إلى أنها موقوفة بجبال بمذبح شجرة ضخمة فأرادت التخلص من قيودها.. ففشلت فالتفت بمنة ويسرة ثم عادت لتلتفت بسرة وكان شيئاً قد جذب نظرها فرأت شيماء موقوفة على الناحية الأخرى فاسترعتها الدهشة فنادتها فلم تجب.. فأدركت أنها غائبة عن الوعي.. في تلك الأثناء..

وسط حلقة الاجتماع تقدم رشاد: وخاطب حسون قائلاً "مفتعلاً الاضطراب" سيدي إن مريم فتاة شريرة لم يحظر بيالي يوماً أنها ستقدم على تلك الفعلة الشنيعة. قال حسون متسائلاً "في خوف": ماذا بشأن مريم هل تعرف شيئاً عنها يساعدنا في إيجادها؟ قال رشاد بحمياً: سيدي تلك المهنونة أخبرتني بشيء لم أرغب

بمشاركتها فيه .. لقد حاولت ردها. قالت المرشدة مقاطعة: ماذا يا رشاد ماذا فعلت مريم؟ قال رشاد وهو ينظر لكل من حسون والمرشدة: في الواقع مريم قامت باختطاف شيما بغية الحصول على المال من أهلها. قال حسون في ذهول كيف؟ وعمت الجلبة بين الجموع.. فقالت المرشدة مقاطعة الضوضاء: مهلا يا رشاد كيف تزعم أن مريم قامت بخطف الصغيرة؟ فهي فتاة طيبة و تنحدر من عائلة ثرية وأنا لا أجد لها دافعا لتقوم بهذه الحماقة. قال رشاد "وقد دى من المرشدة": سيدتي أنا لم أقل أن مريم تريد الحصول على المال.. إنها تريد أن تجرب متعة القتل .. لقد أخبرتني ذلك بنفسها ودعيتي لمشاركتها تلك اللذة وحين رفضت كما أخبرتكم في السابق " صمت رشاد للحظات ثم أردف: "لقد اختلست مطوئي لسوء الحظ وغادرت في العتمة فلحققت بها وفشلت باستدراكها بسبب الظلمة وها أنا الآن بينكم قد عدت من رحلة بحث فاشلة لأفس عليكم ما حصل". قال حسون مغتظا: يجب أن نعر على تلك الفتاة قبل أن تلحق السوء بتلك الصغيرة. صرخ الجميع مؤيدين: أجل، وأعلنوا موافقتهم عن قراره فقال رشاد مستدركا: سيدتي إن مريم قد أجهت غريبا. فقالت المرشدة مقاطعة: ولكن في تلك الناحية يوجد العديد من المشتبهات. قال حسون مخاطبا الجميع: سوف يذهب الراشدون فقط أما البقية فسوف يظلون إلى جانب المرشدة «حسنة» ونظر إلى المرشدة كأنها يسألها أن تقبل بطلبه .. فابتسمت المرأة على مضض وقالت مخاطبة الأطفال: تتكلمون بأمان بجاني يا صغار.

أخذت مريم بالصراخ: طالبة النجدة ولكن ندائها ذهب أدراج الرياح فعدت تنظر إلى الصغيرة محاولة إيقافها واستمرت على تلك الحال حتى حل الليل واشتدت البرودة وبدأت الحيوانات الليلية تستيقظ معلنة عن وجودها ..

اجتمعت المرشدة بالصغار.. وخاطبتهم قائلة: يا أحبائي غدا سوف نتجه شرقا لنبحث عن المساعدة فماذا تقولون؟ قال أحد الأطفال في حماس وبراءة طفولية أنا موافق.. فنظر إليه أقرانه ورددوا أنهم موافقون. فابتسمت «حسنة» وحركت قطع الحطب لتزيد النار اشتعالا..

بكت مريم في وحلها ولخوفها أن تنقض أحد الحيوانات الضارية وبكت وهي تردد: لماذا يا رشاد..؟ لماذا تفعل هذا بنا؟ فسمعتها شيما تبكي فلم تنتبه لها واستمرت بلوم رشاد.. فقالت شيما مستدركة: لا تبكي يا مريم فليس رشاد المسؤول عن وضعنا.. إنه العم حسون والحالة «حسنة» لقد أتينا في إلى هذا المكان.. ثم جاء بك وقيداك بجاني بعد أن قاما بأذية رشاد ورميه من أعلى الهوة ونظرت مريم إلى نهاية المر حيث توجد الهوة وانفطرت من عينيها دموع الحزن والأسى وظلت أن شيما لم تقول سوى الحقيقة.

مع ولادة يوم آخر.. في الغاب أصيب حسون ورجاله بجحمة أمل كبيرة بعد أن أدركوا أن الطريق الغربي لن ينتهي بهم إلا في مستنقعات كبرى والمتحركة .. كما تفطنوا لاختفاء رشاد الذي كان دليلهم الوحيد في البحث عن الفاتنين .. فقرروا اتخاذ المسلك المسلك الشرقي أملين إيجاد المفقودين.



لم يكن من السهل على مريم إخراج مطواة تحسستها بين يديها.. وأخذت بقطع الجبال منذ ساعات خلت بينما أخذت شيماء بالمناداة على منقذ يتشلهما من ذلك الوضع.

في تلك اللحظات..

عاد رشاد إلى مفترق الطريق فلم يجد المرشدة «حسنة» والصغار فاعتمله الغضب وأخذ باللعن والشتم ثم هروا مسرعا باتجاه الناحية الشرقية.

ألمت مريم فك قيودها وحثت لتقطع جبال الصغرة، قالت شيماء وعلى وجهها ملامح الفرح : انظري خلحك يا مريم فالتفت وبداها مازالت ممسكة بالمطواة، وشاهدت المرشدة «حسنة» وجمع هائل من الأطفال.

قالت «حسنة» في خوف شديد: اتركي السكين يا مريم ودعينا نتحدث بهدوء. فأجابت مريم مخاطبتها قائلة في انفعال: لن أتركه قبل أن أمزق أحشائك به أيها القاتلة ثم اندفعت نحو «حسنة» لكن المرأة دفعتها بقسوة فسقطت مريم على الأرض وبغلة هجم الصغار عليها وشلوا حركتها فأخذ البعض بضربها وسحب شعرها والبعض الآخر بعضها فعلى صراخ المسكينة وعجزت عن إبعادهم عنها.. في حين أخذت المرشدة بتفحص الصغيرة ومحاولة فك قيودها في تلك اللحظة.. ظهر حسون والرجال وأمروا الصغار بالابتعاد عن مريم التي بدت في حالة مروعة.. فقد ملأت الكدمات وجهها وتقرق بعض من يديها.

نظرت مريم إلى الحاضرين بصعوبة وأيقنت: أن رشادا قد أوقع بها، وبعد لحظات رأت رشادا يدنو منهم فتحوّلت جميع الأنظار إليه، وقبل أن يقول أحدهم شيئا صرخ رشاد في انفعال : هذه المجنونة التي تبحثون عنها، اقبضوا عليها ماذا تنتظرون؟ انفطرت دموعه انكسار من عيني مريم. فأردف رشاد في مقت : اقبضوا عليها.. اقبضوا على هذه المجنونة.. القاتلة. وبغلة التقطت مريم المطواة من الأرض واندفعت نحو رشاد ونشبت معركة بينهما وانتهت بسقوط مريم من الهوة ووقعها أسفل التلة، بقي الجميع صامتين ذاهلين حول الصدمة والمفاجأة. نظر رشاد إلى الأسفل وانحدرت الدموع من عينيه وهو يرى حبة منافسته قد صبغت الأرض بلون الحمرة.

دنت «حسنة» من رشاد وربّت على كتفه في استحسان، في حين قال رشاد "وقد امتزج حديثه بيكاته" : لقد قتلت احبتي يا أمي.. لقد نفّذت ما تريدن.

ابتمست «حسنة» وهي تلمس في أذني ابنها: كنت أعرف أنّها خطة ناجحة.. لقد أحسنت صنعا يا بني .. ابنة زوجي السابق تستحق الموت بطريقة أشنع لحصولها على ثروة كان يجب أن تكون لنا والآن أصبحت تحت تصرفنا وهذا الحدث يستحق أن نخفل من أجله. وما كادت الأم تكمل حديثها حتى اندفعت شيماء نحوها وقامت بدفعها من أعلى التلة وهي تصرخ باكية أنّها ليست الحقيقة.